البحث عن الحق

سيرة ناسك هندى فى جبال الهيمالايا



تأليف : سوامى مارجيوتى

ترجمة : محمد العزب موسى

البحث عن الحق

سيرة ناسك هندى فى جبال الهيمالايا

تأليف : سوامى مارجيوتى
ترجمة : محمد العزب موسى

الغلاف والأخراج :

اسامة أحمد نجيب

بسم الله الرحمن الرحيم

« يَاأَيُّها الإنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلىٰ رَبِكّ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ . . »

« صدق الله العظيم

« ســـورة الانشـــقاق ٦ »

إهـــداء

إلى الأرواح الباحثة عن الكمال . .

« المؤلف »

أنصح ذوى النفوس غير الشفافة . .
وذوى النظرة الضيقة .
والذين يتصورون انهم احتكروا الحقيقة . .
بعدم قراءة هذا الكتاب !

« المترجـــم »

مقـدمة المترجـم

المألوف أن يختار الانسان ما يقرأه ، ويكون اختياره أصعب إذا كان بصدد ترجمة الكتاب من لغته الأصلية . ولكن هذا الكتاب هو الذى اختارنى لأقرأه ثم ألح علىّ أن أنقله إلى اللغة العربية !

ولهذا قصة ..

كنت فى الهند للمشاركة فى ندوة فكرية بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد المفكر الهندى الاسلامى الكبير مولانا أبو الكلام أزاد فى شهر فبراير ١٩٩٠ .

وعندما كنت أتمشى فى دهاليز الفندق الذى أقيم فيه بنيودلهى ، دلفت الى مكتبة الفندق أتطلع الى ما تحويه رفوفها من كتب هندية وأجنبية ، فلفت نظرى كتاب عنوانه

Spirit of Himalaya : The Story of a Truth Seeker للمفكر الصوفى الهندى سوامى آمار جيوتى . Swami Amar Guoti

فانتزعته من رف الكتب ، وألقيت نظرة سريعة عليه .. كان على غلافه منظر بديع ملون للطبيعة داخل جبال الهيمالايا ، حيث تبدو الجبال الشاهقة مختلفة الألوان والأشكال يتوج قممها الجليد ، وتتحلق حول بحيرة صافية زرقاء تسبح فوقها بجعتان بيضاوان كبيرتان .

وإذ أخذت أقلب صفحاته ، تبين لى أنه يحكى تجربة روحية شائقة

فى شكل قصة أو سيرة حياة ناسك هندى بين هذه الجبال ذات الطبيعة الساحرة ..

كنت مفتونا بسير النساك الهنود ، هؤلاء الباحثين عن الحقيقة ، المتجردين عن هوى الدنيا والمنعزلين فى كهوف الهيمالايا ، هؤلاء الذين قامت على أكتافهم ـ كما يجمع المؤرخون ـ حضارة الهند الحقيقية منذ قديم الأزل ، إذ أن الهند لم تكن يوما من الدول التوسعية المحاربة ، ولم تعرف الفتوحات العسكرية على حساب الغير ، ولكنها كانت حضارة تأملية ، وكان توسعها فى داخل النفس لا ميادين القتال ..

وزاد من فتونى بحضارة الهند الروحية وتراثها التأملى ، ما قرأته للكاتب الانجليزى دكتور بول برنتون .. هذا الكاتب معروف بنزعته التصوفية ونظرته الفلسفية التأملية ، وقد طاف بالهند خلال النصف الأول من القرن العشرين وعاش فيها سنوات عديدة قضاها فى « البحث عن أسرار الهند » لدى النساك والزهاد والمتأملين ورجال اليوجا والفلاسفة والمثقفين ، وعاش حياة المريد فى جبال الهيمالايا باحثا عن المرشدين الروحيين الحقيقيين ، وقد عثر على بعضهم بالفعل ، ووضع عنهم كتابا بالغ الروعة عنوانه : Asearch in Secret India .

وقد تسنى لى منذ سنوات أن أقرأ هذا الكتاب ومجموعة الكتب الأخرى للدكتور برنتون ، وجميعها تدور حول فلسفة الهند الروحية ، ومنها كتاب بعنوان Hermit in the Himalaya وآخر بعنوان The inner Reality وثالث بعنوان The Wisdom of Ourself وتركت فى نفسى هذه الكتب ـ وخاصة الكتاب الأول منها ـ انطباعا لا ينسى ، وأتمنى لو أتيحت لى فرصة نقل بعض هذه الروائع الى اللغة العربية .. ربنا كريم !

لنعد الى موضوعنا .. بمجرد أن وقع فى يدى كتاب « روح الهيمالايا » بعد أن دفعت ثمنه لصاحب المكتبة .. عكفت على قراءته فورا ، حتى اننى انتهيت منه خلال يومين اثنين رغم ما كان يتخللهما من واجبات ومناسبات ، بل وسفر برى طويل شاق .. وعندما انتهيت من قراءته ، وجدت انه عبارة عن رواية مشوقة مشحونة بروح التصوف الهندى تدور حول ناسك فى جبال الهيمالايا يدعى ساتياكام ، وتصف كفاحه النفسي الشاق من أجل الوصول إلى الحق أو الارادة الالهية التى هى وراء كل ظواهر الوجود ، وكيف تكلل كفاحه بالبركة والنجاح ، حتى وصل الى مرتبة عليا فى المعرفة والقداسة .

ملكت علىّ الرواية جوانحى ، وبدأ فى عقلى وميض مستمر يطالبنى بضرورة ترجمة هذه الرواية إلى اللغة العربية باعتبارها على الأقل درة من الأدب الهندى الحديث ، وهى فى الحقيقة درة من الفكر التأملى الصادق .. ألم أقل من قبل إن الرواية هى التى اختارتنى لترجمتها ؟

وصادفتنى عقبة .. ان هذه الرواية بها رموز من الديانات والفلسفات والممارسات الروحية الهندية ، مثل بعض الاشارات إلى آلهة الهندوس ، وعقيدة التناسخ ، وطقوس اليوجا والتانترا والمانترا والمعابد الهندوسية .. ترى ماذا يكون حالى لو ظهرت عقلية متحجرة وقالت : كيف تنشرون على المسلمين مثل هذه الأفكار الهندوسية ؟ أتريدون تحويل المسلمين عن عقائدهم ؟

ولكن سرعان ما نبذت هذه العقبة باحتقار شديد ، قلت فى نفسى : حتى لو كانت هذه الرواية تحوى كفرا ، فإن لدينا نحن المسلمين أن ناقل الكفر ليس بكافر ، فما ظنك والرواية ليس فيها أدنى ذرة من الكفر أو الالحاد ، وإنما تأتى هذه الاشارات الى الرموز الهندية فى سياقها الثانوى وليست لها أهمية أساسية ، وإنما هى شىء طبيعى بالنسبة لأى

حديث عن التصوف فى أى حضارة من الحضارات ، فالتصوف نزعة عامة لدى الانسان من أقدم العصور وفى كل الثقافات ، ولكن هذه النزعة لا تفهم إلا فى نطاقها الدينى ، فالتصوف الاسلامى مثلا لا يفهم إلا فى نطاق الاسلام ، والرهبنة المسيحية لا تفهم إلا فى نطاق المسيحية ، وكذلك النسكية البوذية والهندوسية تتطلب أن توضع فى اطارها البوذى والهندوسى لكى تفهم حق الفهم .

ثم ان ساتياكام ـ بطل هذه القصة ـ لا يركز مطلقا على الديانة الهندوسية وطقوسها ومراسمها وآلهتها ومعابدها .. الخ ، وإنما يركز على شىء واحد هو البحث الانسانى المحموم عن الحق ، الأمر الذى أدى ببعض المثقفين الهندوس ـ فى الرواية ـ إلى اتهامه بترويج الالحاد ، وهى تهمة لم ينج منها كثير من الصوفيين المسلمين الذين اتهموا بالكفر والالحاد من وسطهم المحدود الذكاء ، واضطهدوا لذلك ، وقتلوا ، ومنهم الحلاج والسهروردى ، وغيرهما ..

وهذا الاتهام الرخيص مفهومة دوافعه .. فإن الصوفيين يتبعون طريق الحقيقة أو الباطن ، أما الفقهاء الرسميون فيتبعون طريق الشريعة أو الظاهر ، وقد يبدو فى نظر هؤلاء الفقهاء وجود تناقض بين الطريقين ، ولما كانوا هم الأقرب إلى الحكام وأصحاب السلطة ، كان من السهل عليهم اتهام أهل الحق بأبشع الاتهامات وتأليب ذوى النفوذ عليهم ، وهذا شائع فى كل الحضارات .

والواقع أن طرق الحقيقة وطرق الشريعة بالنسبة لمختلف الأديان أشبه بطرق مختلفة تؤدى الى قمة الجبل ، ويمكن للفرد أن يتبع أى طريق مادام يؤدى به الى القمة حيث يوجد الحق ، كل ما فى الأمر أن طرق الشريعة ممهدة مأمونة يستطيع أن يقطعها الفرد آمنا مادام يؤدى مطالب الشريعة حق أدائها ، أما طرق الحقيقة ـ فبالرغم من

انها متوازية مع طرق الشريعة ، إلا انها مجهولة محفوفة بالمخاطر والمنزلقات يمكن أن يتوه فيها الفرد أو تزل قدمه فلا يصل الى القمة ، أما اذا وصل بالفعل فلا يهم أى طريق سلك .

وقد كان ساتياكام ممن سلكوا طريق الحقيقة بعيدا عن التقيد بطريق الشريعة الهندوسية ، ومن هنا جاء اتهامه بالالحاد مع انه ينظر الى الدين نظرة احترام ولا يأتى شيئا ضده ، كما يحترم العقلانية ويعطيها حقها ، كل ما فى الأمر أن نظرته متسامحة إلى أقصى حد ، تذكرنا بنظرة الصوفى الاسلامى ابن عربى فى قوله :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين المحبة أنَّى توجهت
ركائبه فالحب دينى وإيمانى

ومن الجوانب الأخرى التى جذبتنى فى هذه الرواية .. أن البطل ساتياكام يكاد يجمع فى شخصه الواحد خصائص الأنبياء ، ويذكرنا فى أسلوبه بكفاحهم الروحى وطريقهم الشاق ..

فهو يتشابه مع بوذا فى تأكيده على أن المعرفة بدون تجربة شخصية تصبح سطحية وغير موحية ..

ويتشابه مع موسى الكليم فى محاولته الحوار مع الله ، وتأتى الاجابات عن أسئلته من أعماقه دون صوت مسموع ..

ويتشابه مع المسيح عيسى عليه السلام فى قدرته على إحياء الموتى وشفاء المرضى وجمع المريدين حوله وموعظة الجبل ..

ويتشابه مع محمد صلى الله عليه وسلم فى اختلائه فى الغار قبيل

الدعوة ثم نزوله الى معترك الحياة الواقعية .. كما يتشابه مع أهل الخطوة فى قدرته على الانتقال فى الهواء ، وهى حقيقة مؤكدة عليها أدلة قوية فى الاسلام ..

من أقوال ساتياكام التى يتفق عليها العقل فى جميع الأديان :

« ان الله لا تمكن معرفته ، ولا يصح فى تصورنا لذاته أن ننزل على رأى الجماهير .. ان الاخلاص لله هو وحده الذى يؤدى إلى السمو الروحي ومعرفة الوحدانية ، وهؤلاء الذين يعرفون الذات العليا يطلقون عليها أسماء مختلفة ويشرحونها بوسائل مختلفة » ..

ويقول :

« ان العقلانية وحدها غير قادرة على تفسير قوة الايمان ، لأن هذه القوة خارج نطاق المنهج .. الحدس هو الوسيلة الصالحة لمعرفة الحق .. ان العقل وحده غير قادر على فهم الروح ، إذ كيف يمكن للجزء أن يستوعب الكل ؟ »

ويقول :

« لكى يحصل الانسان على الحب الالهى ، عليه أن يتخلص من حاسة الامتلاك (قارن قول المسيح للمريد إذهب وتخلص من كل ما تملك وتعال اتبعنى) ولا ينتمى إلى أية عقيدة أو طبقة أو وطن على وجه التحديد ، عليه أن يضم فى صدره العالم جميعا .. كن كالشمس التى تسبح حرة فى الفضاء الرحيب تنير الظلمات ، وتهتك ستر الجهل »

« ان الذين ينظرون وراء ظهورهم يتبعون الظل ، ولكن الذين يتطلعون إلى الشمس الساطعة يتركون الظل وراء ظهورهم » ..

وهو إذ يقول لمريديه عندما حضرته الوفاة : « اذهبوا واعلنوا الحقيقة على الناس دون خوف أو انحياز واكشفوا للأرض روح

الهيمالايا » كأنه يردد كلمة المسيح لحوارييه بأن ينتشروا فى الأرض ويكّرزوا باسم الأب والابن والروح القدس ..

أما أسلوب الرواية فهو غاية فى الصفاء والسمو « أرجو أن أكون قد وفقت فى نقل بعض سماته » وهو يشبه أسلوب جبران خليل جبران فى « النبى » ، ومن عجب أن مؤلفات جبران الوجدانية التأملية تحظى بانتشار طيب فى الهند .

بقى أن اكرر ما جاء فى تحذيرى فى أول الكتاب :
أنصح ذوى النفوس غير الشفافة ..
وذوى النظرة الضيقة .. والذين يتصورون انهم احتكروا الحقيقة ..
بعدم قراءة هذا الكتاب !

محمد العزب موسى

[١]

الرغبـات .. والصـيف

حدث ذات يوم
بعيد .. بعيد !

على ضفاف نهر ساراسواتي بالقرب من قرية سونار لينجا ، كان يعيش حكيم . فى تلك المنطقة النائية بشمال وسط جبال الهيمالايا وسط الجبال التى تتوجها الثلوج ، كان الحكيم يسرح ببصره على مدى النهر من حيث يقيم فى آخر نقطة مسكونة على طريق الهيمالايا . أما قرية سونار التى تقبع فوق المنحدرات على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم ، فكانت تبدو مجرد أكواخ قليلة كالحة اللون متحلقة فيما بينها ، وثمة حطاب أو اثنان يقطعان الأشجار فى غابة أشجار الصنوبر الفارعة ، وحفنة من الطيور تتقافز هنا وهناك . ومراع تتخللها أشجار الصنوبر تمتد على المنحدرات .. جميلة ، مورقة ، صامتة ، وثمة جلاميد ضخمة من الصخر الرمادى اللون والمختلف الأحجام متناثرة فى أنحاء الوادى . أما منابع نهر ساراسواتي ، فلا تبعد أكثر من مسيرة يوم واحد إلى أعلى .. وكان الجو بارداً ، رطباً ، منعشاً ، باعثا على النشاط ..

اختفى الفجر تحت أشعة الشمس المحرقة فوق القمم الشرقية لسلاسل الجبال ، وخرج الحكيم من كوخه الخشبى حاملا طاسه فى يده وتقدم إلى النهر ، كان يسير منتصب القامة ذا ملامح لا تليق إلا بحكيم ، ووقف أمام النهر بقامته الطويلة ، وجبهته الواسعة ، وشعره المتموج الذى يصل إلى وسطه ، ولم يكن يكسو جسمه النحيف سوى القليل من الملابس ، ولكن ملامحه الهادئة المطمئنة تبدد أى شك فى أنه يشعر بالفرح المشع ، والسلام الذى لايوصف ، ومن العسير أن تخمِّن كم عمره ، ولكن يمكن الحكم من مظهره البدنى أنه فى نحو الستين من العمر .

وبعد أن انتهى من حمامه فى النهر البارد ، عاد الحكيم إلى كوخه ، ووضع الطاس الملىء بالماء جانبا ، وإذ تهيأ للخروج مرة أخرى كان ثمة شاب يهبط المنحدر وراء الكوخ ، وماهى إلا برهة ، حتى كان الغريب يتقدم فى احترام بالغ نحو الرجل المقدس ، وانحنى واضعا جبهته على قدمى الحكيم العاريتين ، وندت عن شفتى الحكيم المغلقتين همسة ترحيب بسيطة تحمل شعورا بالارتياح لمقدمه ، وانتفض الشاب واقفا ، كان وجهه مشرقاً وعيناه تشعان ، وابتسامة حلوة على شفتيه ، وفى لمح البصر تلاشت عنه ملامح التعب من سفره الطويل على الأقدام ، ووقف فى صبر واضح ينتظر اللفتة القادمة من الرجل المقدس .

جلس الحكيم على حجر مستو قريب ، ودعا الغريب إلى الجلوس قبالته ، ثم قال فى نبرة تنم عن الرضا :

— هأنتذا قد جئت ياستياكام !

— كيف عرفت اسمى ياسيدى ؟

يبدو أنك كنت تعلم أننى قادم ، أليس كذلك ؟

لم يجب الحكيم مباشرة على هذه التساؤلات وكأنه يأخذها كشىء مفروغ منه وواصل حديثه قائلا : « اغتسل فى النهر ثم كل واسترح بقية اليوم ، وفى الغد سوف تتلقى درسك الأول فى الطريق الروحى » .

— ولكن ياسيدى اننى أريد أن أحدثك كثيرا عن بحثى وصعابى وآمالى وكيف اهتديت إلى مكانك ..

قاطعه الحكيم قبل أن يكمل عبارته بنبرة حازمة محسوبة قائلا :

— لا حاجة هناك لأى رسميات أو تعارف بين مريد ومرشد تبادلا التعارف من ميلاد إلى ميلاد .

— أنت إذن مرشدى من ميلاد إلى ميلاد ؟

قالها ساتياكام فى دهشة ورضى وقد غلبته عواطفه فالتمعت عيناه بالدموع واغلقهما فى بطء وفرح لايوصف ، وانهمرت دموعه على خديه ، وانثنت يداه لا إراديا على صدره فى احترام بالغ ، واحنى جبهته قليلا ، ثم لم يلبث أن ارتمى لا إراديا على قدمى استاذه .

مس الأستاذ رأس ساتياكام بيده اليمنى ، وغادر المكان فى هدوء .

■ ■ ■

مر النهار مشحونا بالبهجة الخالدة ، كانت السماء صافية زرقاء ، والثلج يضوى فوق القمم ، وطار غراب أو اثنان من طرف الوادى إلى طرفه الآخر ، وكان الماء يندفع فى النهر محدثا الصوت الوحيد المسموع فى الوادى ، وغسلت المياه الطاهرة نفسية ساتياكام وجعلته يسترخى مستوعباً جمال الطبيعة من حوله ..

ومضى ساتياكام فى هدوء ونظام يؤدى واجباته طبقا لارشادات استاذه إلى أن انتهى اليوم فى سلام الغسق .

وناداه الرجل المقدس بقليل من الاهتمام قائلا : « سأراك غدا صباحا ،

يمكنك أن تأوى إلى كوخك الآن » وأشار إلى كوخ يبعد قليلا إلى الجنوب ..

فى الصباح التالى انتثرت مساحات قليلة من السحب فى صفحة السماء ، ولكن أشعة الشمس اخترقت تلك السحب ، وهى نعمة فى تلك المنطقة التى يكسوها الثليج . كان موسم الأمطار لايزال أمامه شهران ، وهبط الشبحان الصامتان حافة الجبل وراء كوخ السيد من حيث ظهر ساتياكام فى اليوم السابق ، وبعد مسيرة قصيرة وفى منطقة منبسطة من الأرض على سفح الجبل ، جلس السيد فى مواجهة النهر ، وعلى مستوى أكثر انحدارا جلس ساتياكام ناظرا إلى سيده ، وكله آذان صاغية .

كان ساتياكام ربعة القوام ، ذا بشرة تميل إلى البياض ، فى بداية العشرينات من العمر ، تتناثر فى وجهه لحية خفيفة تدل على مخايل الطموح ، وينسدل شعر رأسه إلى مؤخرة عنقه ، ولكنه لم يتطاير بعد ، وله وجه أقرب إلى الاستدارة ، يمكن للمتطلع فيه بسهولة أن يقرأ آيات الاخلاص والورع والتحكم فى الذات ، كان الصدق جاهزا على شفتيه فى كل وقت ، وبالرغم من بعض مظاهر التعب ونقص الغذاء كان يبدو موفور الصحة .

نظر اليه الأستاذ وقال : « ساتياكام ، سوف نبدأ من حيث انتهينا فى الميلاد السابق » .

أجاب ساتياكام فى براءة : « ولكنى لا أذكر ميلادى السابق ، ياسيدى ! » .

— سوف تذكر كل شىء مع الأيام ، لا فائدة من أن أخبرك الآن لمجرد أن أرضى نزعة الفضول لديك ، من الأفضل أن تصل أنت إلى معرفته ، لا أن يتم ابلاغك به ببساطة ، يكفى أن أقول لك إنك لن تستغرق وقتا طويلا حتى ترى تجسدك السابق . ان ما يهم حقا هو توازنك الذهنى الحالى وفضائلك ، ولديك هذه الأشياء بوفرة .. الصدق والتحكم فى النفس والاخلاص .

وصمت الاستاذ قليلا ثم أكمل :

— ابتداء من اليوم عليك أن تنسى حساب الزمن بالأيام والشهور والسنوات ، كل ما عليك أن تراقب الشمس وهى تشرق ثم تغرب ، دع كل يوم يكون ببساطة يوما ، وكل ليلة مجرد ليلة ، ودع اليوم يطفو مع حياتك ويحمل لك فى كل مرة جديدا . ان الماضى والحاضر والمستقبل سوف تمتزج فى

حقبة واحدة . ولسوف تطفو فى حالة لا توصف من الفرح والضياء والراحة والحرية .

رد ساتياكام باحترام :

— لدىّ سؤال ياسيدى . كم يستغرق تحقيق ذلك من الوقت ؟

اجاب الحكيم وقد برقت لمعة فى عينيه . وارتسمت ابتسامة على شفتيه :

— هانتذا قد عدت إلى عد الوقت من جديد . ما لم تتوقف عن ذلك لن يمكنك تحقيق الحرية . انها عادة لديك . أليس كذلك ؟

سأل التلميذ فى براءة

— ولكن ألا يستغرق الأمر شيئا من الوقت للخلاص من العادات ، أيها المهراجا [1]

مضى الحكيم فى كلامه قائلا بحب .

— بالتأكيد ، يلزم بعض الوقت لذلك ، ولكن هل وقتك محدود إلى درجة تقلقك على نفاده ؟ ألا يكفى أنك تعيش الآن وأنك تشعر بذلك ؟

ان القاذورات يمكن أن تتراكم . والقاذورات يمكن أن تزال . ومابين هذا وذاك يمكن أن تسميه وقتاً . ولكن فى الحقيقة إما أنك منشغل فى تكوين عادة أو فى التخلص منها . ألا يكفى أن تعرف أن الوقت لانهائى بالنسبة لك لتفعل ماتريد أن تفعل ؟ اذا بدأت تعد هذا الوقت . فإنك تمد فى العادة ' حاول ألا تصنع عادة لاتستطيع الخلاص منها بسهولة .

قال الباحث عن الحقيقة متسائلا فى شىء من القلق :

— ولكن ماذا أفعل إذا استمرت الأفكار تتوارد فى ذهنى ؟ أقصد كيف أستطيع التغلب على العادات التى تكونت فعلاً ؟

نظر الرجل المقدس إلى ساتياكام فى حب . ومس جبهته بيده فزال قلقه . وقبل أن يتمكن من الحديث أجاب الحكيم :

— راقب الأفكار .. انظر اليها وهى تجرى وكن عليها شهيداً .. وانتظر .. بصبر .. حتى تزول المنغصات وينطلق مجرى الوعى فى نعومة

---

(١) المهراجا : معناها الحرفى ـ الملك العظيم ـ ويستخدم عادة فى مخاطبة الرجال المقدسين .

وحرية .. سم هذه طريقة إن شئت

مرغ ساتياكام وجهه على الأرض أمام أستاذه . كان بوده أن يصيح « يا له من فضل » ! ولكنْ هذه أيضا كانت فكرة **فسكت** تماما بينما فاض السلام الرحيب فى الجو

وسارا معا فى هدوء نازلين الجبل . لم يكن ساتياكام يشعر بدقات قلبه . فحتى النبض وخلجات الجسد تبدو كأن لا وجود لها . وشعر أنه خفيف جدا كما لو كان يطفو فى الهواء ! هل كل ذلك يحدث نتيجة لمجرد الأسئلة والأجوبة . أم هناك شيء آخر وراء ذلك ؟

ظل ساتياكام يفكر حائرا فى هذا الأمر . حتى أنه نسى أن يودع أستاذه عندما وصلا إلى كوخه . ودخل إلى الكوخ مندفعا . ودفن وجهه فى ملاءة السرير . وانهمرت الدموع من عينيه . ولم يكن فى استطاعته التحكم فى أمواج الحب التى تعصف فى قلبه . ولم يستطع فى عرفانه بالجميل الذى يملأ أعماق قلبه إلا أن يتمتم « شكرا لك يا إلهى » .

■ ■ ■

مضى الوقت دون أن يشعر به ساتياكام . ولكنه لاحظ أنه عندما يحاول عمدا أن ينسى كل شيء عن الوقت ويتجاوزه . يزداد لديه تلبداً . فتهاجمه الذكريات الماضية والعادات سواء منها القوية أو الرقيقة . ويمضى الحوار الداخلى يعتمل فى ذهنه . وتستمر حالات الذهن الثلاث :

الركود والنشاط والتوازن تحتويه وتدور حول ذاته . وكلما حاول أن يتبع ارشادات أستاذه . يجد نفسه تتجاذبها الميول الراسخة فى وعيه الظاهر ووعيه *الباطن* فى حياته *الحالية* . ومن يدرى . ربما من حيواته *السابقة* أيضا !

ولكن هذه المعركة الداخلية . على أية **حال** . لم تكن تؤثر فى واجباته اليومية التى يقوم بها لأستاذه ولنفسه . فمن بداية شروق الشمس إلى غروبها وخلال الليل كان يقوم بهذه الواجبات فى انسجام ودقة . وكان الأستاذ يبدو راضيا عنه رغم أنه نادرا ما يعبر عن ذلك الرضا . ولم يكونا يتحدثان معا إلا فى حالة الضرورة . وفيما عدا ذلك يلتزم كل منهما الصمت .

كان يستحم فى النهر البارد . ويكنس المكان . ويطبخ . وينظف الأوانى .

ويحضر الماء من النهر ، ويغسل الملابس ، ويقطع الحطب فى الغابة ، كان يقوم بهذه الواجبات ومثيلاتها على مدار الساعة ، وتصل إلى قمتها فى تدليك قدمى أستاذه قبل أن يأوى إلى الفراش ..

وأحيانا كان ساتياكام يوجه أسئلة إلى أستاذه لتنوير ذهنه ، فتأتى اجابات الأستاذ كأشعة الضوء التى تبدد سحب الشكوك أو المخاوف أو الغباء ، ولأول مرة فى حياته الحالية يرى ساتياكام بوضوح ماهية الأستاذ : أن يبدد ظلام الجهل ، وكثيرا ما كانت ذاته تتضاءل تواضعاً كلما نما فهمه فى أشعة شمس الحب المنبعثة من أستاذه خلال نظرة محبة أو تأنيبة مفيدة . وبدون إرادته أخذت « الشاكرا »[1] الرابعة لديه تتفتح وتمتلىء جوانحه بالبركة التى لا تصفها الكلمات .

وكلما كانت هناك حاجة للحصول على طعام ، كان يذهب لشحذ الصدقات فى قرية سونار على الضفة المقابلة لنهر ساراسواتى ، فكان يجتاز الجسر الخشبى العتيق المصنوع من جذوع أشجار الصنوبر المستقرة على جلاميد من الصخر ، ثم يتسلق خمسمائة قدم صعودا فى الجبل حتى يصل إلى القرية .

كانت قرية سونار بدائية تملؤها القاذورات والطرقات الحجرية ، وروث البهائم فى كل مكان ، والبيوت نفسها تتكون أساسا من الروث المخلوط بالطوب تربط بينها أطر خشبية ، وتغطى سقوفها فروع الأشجار الجافة المخلوطة بالقش .

وكان القرويون عندما يرون ساتياكام ماراً ينحنون له فى احترام فيرد بابتسامة بسيطة أو ايماءة من رأسه ، وعندما يراه الأطفال وهم يلعبون فى الأفنية المفتوحة أو شرفات بعض المنازل يصيحون فى ابتهاج « يامهراجا » ويحيونه بطريقتهم الطفولية ، وكانت السيدات غالبا ما يأتين له بالأطعمة غير المطبوخة مثل الأرز والدقيق والبطاطس والحبوب فيضعها فى مخلاه المصنوعة من القماش ، ولكن فى أيام الأعياد كن يجئن فى ملابسهن الجديدة

---

(١) الشاكرا : احدى الضفائر العصبية النفسية السبع وهى : ضفيرة القلب بالتحديد وترتيبها الرابع بين الضفائر التى مركزها العمود الفقرى ، وتسيطر على بقية أعصاب الجسم ، حسبما تقوله التانترا .

التى تحليها المجوهرات ويأتين بأشياء اضافية كالحلوى والزبد شاعرات بغاية الفرح والشرف لملء مخلاه . أما ساتياكام فكان يردد كلما تلقى عطية : « نارايان .. نارايان »[1] ، وأحيانا كان الناس الأكثر فهما يقدمون له علب الشاى وقطع السكر وأحيانا قطعا من القماش الخشن ، وعندما تمتلىء مخلاه وطاسه يقود خطواته إلى منحدر الجبل ، ويرفض فى أدب وكياسة أن يأخذ المزيد من الصدقات ، واذا حدث أن قدم له أحد لايعرف أحواله طعاما مطبوخا كان يرفضه فى أدب قائلا : « نحن لا نأكل سوى الطعام الذى نطهوه بأيدينا » وعندئذ يزداد احترامه فى نظر الذى يقدم له الطعام لأنه يرى فى ذلك عملا من أعمال التقشف .

وأحيانا كان يطرق أذنه صوت ناعم يقول : « تعال .. يامهراجا » فيلتفت دون قصد منه فى اتجاه الصوت فيرى حسناء من بنات الجبل تبتسم له فى فتنة ساحرة ، فيخفض وجهه سريعا وقد احمر خجلا ، ويتذكر فورا عبارة كثيرا ما سمعها فى جولاته « يقع فى مصيدة من يتجاوب مع ابتسامة ! » وكان نفس الحادث يكاد يتكرر فى كل مرة يذهب إلى القرية لجمع الصدقات ، فلا يتجاوب على أى نحو ، ويمضى فى طريقه خافض الرأس ..

هل هو ضعيف إزاء مثل تلك المشاعر ؟

ألا يمكن أن يكون عقله اللاواعى يخفى شيئا يجعل الخجل يطفو إلى سطحه ؟ هل تراه يشعر بالانجذاب حقا نحو الفتاة ؟ ألا يجوز انه يكبت شيئا فى أعماقه لم يحلله تحليلا كافيا ولم يفكر فيه ؟ ألا يمكنه أن يكون انسانا طبيعياً ويستجيب لعاطفة الحب البريئة من تلك الفتاة الجبلية البسيطة ؟ هل هو يهرب ؟

لم يكن يريد أن يفكر فى كل ذلك ، ولكنه لايستطيع أن يتحكم فى مثل هذه الأفكار والمشاعر ، ثم تنسحب هذه الأمواج إلى مؤخرة ذهنه وهو يسير ببطء على الجسر مجتازا النهر وعائدا إلى كوخه ، ولايبدو كأنه شغل باله بهذه الأفكار والذكريات بمجرد أن يغادر القرية ، فإن ما أخذ به نفسه من نظام صارم وتأمل وخدمة سيده والاقتراب منه ، تجعله أكثر انشغالا من أن يجد

(١) نارايان : من اسماء الله تعالى

وقتا لترف الغرام ، وإذا كانت هناك أفكار من هذا النوع فى أعماقه فإنه غير أبه لها ، أو على الأقل لايريد أن يكون أبهاً لها !

■ ■ ■

وفى بعض الأحيان كان ساتياكام وأستاذه يقومان بجولات صامتة فى المراعى أو خلال غابات الصنوبر ، يتوقفان أحيانا لتبادل كلمة من الحكمة ، وأخذ ذهنه فى بطء يتوافق مع نبرة ذهن أستاذه والطبيعة السماوية المحيطة بهما ، ولكن أحيانا ما كان ذهنه يضطرب برواسب الماضى ويوشك على الانفجار ، غير أنه سرعان ما يهدأ مرة أخرى نتيجة فن العلاج المنبعث من أستاذه ..

وذات يوم نادى الأستاذ تلميذه ساتياكام وقال له : « دعنا نذهب إلى قمة ساراسواتى ، سوف نعود بعد ثلاثة أيام ، يمكنك أن تأخذ معك غطاءك وطاسك ، وإذ كنا لن نجد فى طريقنا قرى نلتقط منها الصدقات .. فعليك أن تأخذ معك بعض الطعام ، هيا استعد فوراً ، اذ علينا أن نصل إلى القمة قبل أن يحل الظلام » .

وفعل ساتياكام ما طلبه منه أستاذه ، وسرعان ما بدا طريقهما فى هدوء نحو الأعالى التى يكسوها الثليج .

حوالى الظهيرة جلسا فى مكان مريح على الطريق الجبلى العلوى ، كان ساتياكام يشعر بالتعب والجوع ، فقد كان الطريق منحدرا بشدة وبالغ البرودة ! ولكن لحسن الحظ كانت السماء صافية ويمكنه أن يتلمس بعض الدفء فى أشعة الشمس ، أما الأستاذ فكان يبدو معفياً من التعب والجوع والبرد ، وأشار إلى ساتياكام بحركة من أصبعه أن يأكل ، وكان لمذاق الخبز الجاف والسكر والبطاطس المغلية طعما سماويا فى تلك اللحظة ..

وبعد أن انتهى من الأكل ذهب إلى مجرى ماء مجاور فغسل مخلاه وشرب حفنة من الماء وعاد فى هدوء إلى مكانه ، فوجد أستاذه هادئا كالهيمالايا وقد دخل فى غيبوبة ، كانت القمم الثلجية البيضاء تبدو فى صفحة السماء الزرقاء الصافية كأنها قريبة فى متناول اليد ، وبدت الشمس الذهبية الباهتة فى ذلك البرد القاسى كأنها مصممة على بث الدفء ، وهب نسيم معتدل حلو

كأنه مجرى ماء صاف يتدفق فى موجات متناغمة ، فلا عجب أن يذوب ساتياكام فى قوة الطبيعة المنومة ، فلم يدر ما حدث له ، وعندما فتح عينيه راى أستاذه ينظر اليه مترقباً ، لابد أنه قرأ احساسه الداخلى وشعر بما يفتعل فيه ، وتحدث الأستاذ بصوت حلو ، ملىء ، ثرى ، قائلا :

— ألست تفكر فى الخليقة وأسرارها وغرضها ؟

وبدون أن يتوقف ليسمع اجابة سؤاله التى كانت غير ضرورية كما هو واضح ، مضى الحكيم قائلا :

— كل هذه الخليقة التى تراها أمامك مجرد مسرحية ، انها ليست مجرد علاقة شخصية ـ موضوعية ، ولكنها أعمق من ذلك ، أن شيئا يبدأ شيئا آخر ، ومع تداعى الأشياء واحدا وراء الآخر ، تنشأ الحاجة إلى استخدام الأسماء والأشكال ، وهذا ما يسمى الخليقة ، وعلى ذلك فإن نظرية الظواهر تختلف عن نظرية التحولات ..

وفجأة أمسك الأستاذ بيد ساتياكام وقال :

— انظر .. هأنذا أمد يدى اليك ، وأنت قد تمد يدك الأخرى إلى شخص ثالث ، وهكذا ، وبعد قليل يكوّن هذا الخط دائرة أو مثلثا أو مربعاً أو أى شىء آخر ، وبذلك يكون لنا بعد أو حجم . هذه الحركة تستمر بلا نهاية فى مختلف الأشكال والألوان .

وأطلق الرجل المقدس يد تلميذه ، وواصل أسلوبه الفريد :

— قل لى ياساتياكام : ما الغرض من كل هذه السلسلة ؟ أليست هى مجرد لعبة ، علاقة سبب ومسبب .. كارما ؟ (١)

أن هذه الخليقة بأكملها اكليل من الزهر توجد فيه الكارما كالزهور التى تتماسك فيما بينها بقوة غامضة تسمى القانون .

وتحدث ساتياكام لأول مرة فى الرحلة وهو لايزال شبه منوّم : ولكن ياسيدى ، من الذى أراد أو خلق هذه القوة فى أول الأمر ، وما الحكمة وراء ذلك ؟

---

(١) كارما : مصير أو قدر ، نتيجة علاقة سببية

— إنها الارادة .. سمها ارادة الله .. ارادة المجهول .. الارادة الذاتية .. لتكن ما تكون ، ولكنها وراء الشكل والأسم .. شيء أصيل فى الوعى الكلى .. سمها القدرة الكلية .. قدرة الخالق ، وإذ تخرج فى نطاق الارادة تبدأ وتستمر فى ايجاد مالا حصر له من النماذج . الشاهد إذن أن الوعى الأساسى ، بفضل جوهره ، كلى الوجود ويشع الحكمة خلال ذاته ، وهذه الديناميكية التى لاتنقطع ، بمثابة الرقصة الكونية للخالق ، ان نبض تدفق الطاقة لا يتوقف أبداً ، وهذه الظواهر الدائمة التغير قابلة للدمار وغير قابلة للدمار فى نفس الوقت ، فإن الجزيئات والموجات المنبعثة عن الطاقة الكلية الوجود لاتفتأ تصطدم وتنهار ، ولكن كلا منها يؤدى إلى انطلاق جزيئات أخرى بلا عدد ، ومن نفس النوع ، وعلى دوام الزمن تعبر الطاقة عن نفسها فيما لا حصر له ، ولاتنبؤ به ، من الأشكال وبين كل شكل وآخر مناطق شاسعة من الفضاء ، ولذا فإن أى حساب أو قياس للزمن يصبح زائفاً على هذا المستوى الذرى وشبه الذرى من الوجود ..

وأغلق الحكيم عينيه وراح فى تأمل عميق مرة أخرى . أما ساتياكام ـ وكان فى حالة شبه وعى ـ ففقد الاتصال بأستاذه وغرق فى التأمل هو أيضا ، وفجأة كأن ومضة من البرق ألمت به فقال : سيدى ، هل يمكننى أن أوجه سؤالا ؟

اعترض الحكيم قائلا : « اننى لست فيدا ـ فياس »[1] ثم أكمل : « ولكنى لست شخصية واحدة انتمى اليها .. اننى تغيرت فى أشكال كثيرة من عصر إلى عصر بحيث يصعب علىّ أن أتعرف على من أكون أو ماذا كنت .. يخيل إلىّ أن كل سلسلة الحيوات التى عشتها هى حياة واحدة متصلة يدعمها الوعى ، ومايبدو أنه اختلافات هو مجرد نماذج بسيطة مختلفة منسوجة بالطاقة والحركة » ..

كان يمكن للأستاذ أن يمضى متحدثا على هذا النحو إلى ماشاء الله ، لولا أنه كان عليهما أن يصلا إلى قمة ساراسواتى قبل هبوط الظلام ، وانتفض ساتياكام كأنه استيقظ من حلم وتبع خطوات أستاذه ، وسارا معا نحو

---

(١) فيدا فياس : مؤلف الفيدا أى كتب الحكمة .

المرتفعات العليا ، وبدأ ذهن ساتياكام تدور فيه كثير من الأسئلة ، ولكنه إذ رأى أستاذه يمشي صامتا واسع الخطوات أسرع وراءه لانهاء رحلة اليوم .

غربت الشمس وراء سلسلة الجبال الغربية مرسلة ظلالها على السفوح البنفسجية التي تغطيها مساحات الجليد ، كانت الجبال العظيمة تبدو ممتدة بلا نهاية مختلفة الألوان والأشكال أحيانا ، كان طريقهما يمر عبر مساحات من الزهور والنباتات البديعة الجمال والتى لاتقدر على انتاجها سوى جبال الهيمالايا ـ ان عبقرية اعمال أمنا الطبيعة ظاهرة لدى كل منحى فى الطريق ، وفى أحيان أخرى كان الطريق يمر عبر ثلاجات يخيم عليها الهدوء والتقشف والبرد ، وشعر ساتياكام بكثير من الهدوء النفسي ، ولكن الحزن لم يزايله تماما ، إنه لايعرف لماذا ، وفجأة جال فى ذهنه كأن أحدا يهمس له قائلا . كم كنت مستريحا ، دافئا ، هانئا الآن إذا لم تكن قد غادرت بيتك فى السهول ! أحس بالذنب لهذا الخاطر ، ونظر إلى ظهر أستاذه ، فالتفت الأستاذ اليه ورمقه بنظرة ، ورأى ساتياكام بوضوح ملامح السعادة والاشراق على وجه الحكيم ، فزايلته كآبته فوراً كالمعجزة ، واشرق وجهه بالفرح مثل أستاذه ، وعاد ينظر إلى ذراعي الهيمالايا الممتدتين فى قداسة وجمال وروعة نحو عرش السماء ، ورقصت روحة فرحاً .

كان هذا اليوم هو اليوم الثالث من الشهر القمرى ، وظهر الهلال فى الشرق مرسلا ضوءا ضئيلا يتناثر فوق الجبال الفضية ، أما السماء فكانت بللورية صافية .

وقطع الأستاذ الصمت ، قائلا : بعد قليل سوف نصل إلى القمة .

كان مجرى النهر فى هذا المكان قليلا بدرجة كبيرة فى العرض والعمق ، والمياه الصافية كأنها تهمس بأغنية عذبة مجهولة فترسل ذبذبات من الفرح إلى السلسلة الفقرية لساتياكام .

كانت المرحلة الأخيرة من التسلق شديدة الانحدار ، ولكن ساتياكام زايله التعب تماما وشعر بنفسه نشيطا ، خفيفا ، مليئا بالطاقة ، وكانت روحه أيضا تردد نغمة مجهولة ، ان عالمه الداخلى فى توافق موجى تام مع تلك المنطقة الذهبية من الهيمالايا تحت قبة السماء الصافية ، وكان قلبه منتشياً بصورة ما رآه على الطريق من زهور برية متعددة الألوان تتناثر فى مراعى

الجبال ..

وعندما وصلا إلى قمة الجبل شاهد ساتياكام منظرا بهر أنفاسه .. بحيرة رائعة تحدها الجبال العالية من ثلاث جهات ، وتمتد على مساحة هائلة ، ويخرج من قرب نهايتها نهر ساراسواتى صامتا ناعماً ، وظلال الجبال التى تلقيها الشمس الغاربة وراءها تسقط على سطح البحيرة عاكسة هيئة الجبال .

تطلع الرجل المقدس حوله وتقدم إلى مكان يبدو أنه يعرفه من قبل .. صخرة كبيرة مستوية تبرز كالرف من جانب الجبل وتحتها مساحة منبسطة تشبه غرفة مفتوحة لا جدران لها تتسع لشخص واحد ينام فيها ، وفى مؤخرتها كتلة خشبية شبه دائرية تعطى ايحاء بأن من الممكن استخدامها كمخدة .

دق شىء فى أعماق ساتياكام وصاح : « يخيل لى اننى رأيت هذا المكان من قبل ! يبدو لى كأنى زرت هذا المكان فى وقت ما ! »

ولكن أستاذه قطع عليه مشاعره الغريبة قائلا فى عجلة : « ساتياكام .. إرتح هنا الليلة ، وسوف أراك غداً صباحاً »

لم يحاول ساتياكام أن يسأل أستاذه أين سينام هو ، إذ كان الآن يعرف قدرات أستاذه معرفة كافية ..

وسرعان ما اختفى الأستاذ الحكيم فى الظلام الذى يبثه الليل المقترب ، ونشر ساتياكام ملاءته على الأرض الحجرية ، جاعلا أحد طرفيها يغطى الكتلة الخشبية شبه الدائرية ، وهكذا اكتمل السرير ، وقد فعل ذلك بطريقة طبيعية كما لو كان يفعله كل ليلة !

نظر حوله .. كل ما استطاع أن يراه صفحة السماء الزرقاء الداكنة تتناثر فيها النجوم المتلألئة ، وحفيف المياه فى البحيرة ، وقمم جبال الهيمالايا التى يكسوها الجليد ، وشعر ساتياكام كأنه فى حنان حضن الأم ، وكما لو كان فى بيته ، وبدأ يسترخى تدريجيا ، ولكنه لم يكن يشعر بالحاجة إلى النوم ، ولذا جلس فى وضع زهرة اللوتس فوق الملاءة فى مواجهة البحيرة ، وزايلته الحرارة التى بثها فى جسده تسلق الجبل وبدأ يشعر بالبرد ، فضم شاله الصوف حول كتفيه ، وغطى به جسمه ، وأخذيحملق فى الماء ثم انغلقت عيناه كأكمام

اللوتس ، وراح فى تأمل عميق .

وفى الهزيع الأخير من الليل ، وكان قد صار شبه ناعس ، استلقى ساتياكام على الملاءة ، أراح رأسه على الكتلة الخشبية المغطاة بطرف الملاءة ، وغطى بالشال الكثيف كل جسده ، وراح حفيف الموج الخفيف يدفعه دفعا إلى النوم ..

■ ■ ■

قضى ساتياكام ليلته الأولى فى هذا المسكن السماوى الذى يرتفع ١٢ ألف قدم فى جبال الهيمالايا ، وهى نعمة لم يحصل عليها سوى القليل من الأرواح المحظوظة ، ثم أخذ الفجر الشاحب يظهر رويدا رويدا .

ومرة أخرى تفتحت جفون ساتياكام فى بطء كأكمام اللوتس ، لم يتصور فى أول الأمر أين هو ! ولكن سرعان ما عاوده التذكر وقام من مضجعه ، وجلس جلسة مريحة عاقدا يديه فوق صدره ومنحنياً فى خشوع .. لمن هذا الانحناء ؟ للماء ؟ للجبال ؟ للسماء ؟ ربما لكل الخليقة ، للإله الخالق !

ثم قام وأخذ طاسه ، وذهب إلى البحيرة ، فملأ الطاس بالماء ، وذهب وراء كتلة كبيرة من الحجر على مسافة من البحيرة وبعد أن فرغ من اغتساله الصباحى راح يتذكر أستاذه ، وسقطت عليه الأشعة الأولى للشمس الذهبية ، فأحس بدفء لطيف ، واتجه قبالة الشرق وركع أمام الشمس ، وظل راكعا فى إجلال ومحبة فترة من الزمن ..

كان الماء فى البحيرة صافيا غاية الصفاء فى ذلك الصباح والجبال الضخمة لم تعد تلقى بظلالها السود على صفحة البحيرة كما كانت فى المساء السابق ، فقد كانت الشمس حينئذ تواجه الجبال ، وفيما عدا نتفا متناثرة من الثليج . على ضفاف البحيرة كانت الحشائش الخضراء النضرة تفترش كل المكان كالبساط السندسى تتناثر عليه زهور برية بالغة الروعة والتنوع تزين الحشائش .

وبدت قمم الجبال المكللة بالجليد فى نظر ساتياكام كأنها رسل تبعث اليه برسالة مقدسة ، ويمتد خلفها فراغ أزرق لانهائى ، وكاد أن يفقد وعيه بين هذه الألوان البيضاء والزرقاء والذهبية لولا أن حانت منه التفاتة فجأة فرأى

وهو لا يكاد يصدق نفسه ، جسمين بيضاوين صوفيين يطفوان على مبعدة على سطح الماء كأنهما زهرتان بيضاوان من أزهار اللوتس تقتربان منه في بطء ، وعندما اقتربتا ظهر بوضوح أنهما بجعتان ! كانتا أكبر من البجع المألوفة وفي عيونها نظرة تنتمي إلى عالم آخر ، وثمة هالات قرنفلية حمراء تتحلق حول عيونها تعطيها نظرة مقدسة تجسد النقاء والصفاء ، وكانت عيونها لاتطرف كما لو كانت مفتوحة على الدوام ، فأخذت الدهشة ساتياكام وأيقن أن هاتين البجعتين لاتنتميان إلى هذا العالم الأرضي .

وظل ساتياكام ينظر غير مصدق إلى هيئتهما الحكيمة وعيونهما المتطلعة إلى الداخل . وسباحتهما الناعمة وهما تشعان السلام والفرح فيما حولهما ، وكاد أن يغيب عن وعيه ولكنه سمع وقع أقدام ناعمة بالقرب منه فنظر إلى يمينه . كان استاذه واقفا إلى جواره ينظر اليه في محبة وأمل مجهول ، وملأت الرهبة المقدسة قلب ساتياكام .

وتحدث الحكيم في نبرة هادئة كموسيقى الصباح : « ثمة اسطورة هنا من الأزمان البعيدة تقول إن هاتين البجعتين تجسدان شيفا وزوجته الأبدية دورجا ، انهما يتجولان في كل أنحاء الهيمالايا ويظهران ويختفيان في بحيرات مختلفة ، وقليل من النفوس المحظوظة فقط هي التي تنعم بهذه الرؤية المباركة ، وأنت واحد منها ياساتياكام »

التفت ساتياكام مرة أخرى ليشاهد المنظر المقدس . لم يكن يستطيع أن يستوعب الكمال المنبعث من الهالة التي تحيط بهما والتي تشبه الحلم في جمالها ونقائها وامتلائها . فسجد على الأرض في مواجهة البجعتين المقدستين وهو يهتف بصوت متحشرج : « شيفا .. شيفا . شيفا .. دورجا .. دورجا » ، وشعر كأنه يستحم في جمال الطبيعة .

بعد قليل استقام ساتياكام على ركبتيه المثنيتين . ثم هب واقفا على قدميه ، ونظر مرة أخرى بمزيد من الثقة والحب والاحترام إلى المنظر النادر ، رأى ريش البجعتين أبيض في رقة الثلج وصفاء السحاب . وكل منهما ذات رقبة طويلة تنتهي برأس تشع بالجمال ، ولم تلبث البجعتان أن استدارتا وأخذتا تسبحان بعيداً .. بعيداً ، إلى أن اختفيتا فجأة .

دهش ساتياكام ، وبدا له كأنه يحلم ، ولم يعد في استطاعته أن يتماسك ،

فألقى برأسه على قدم أستاذه ، وغاب عن الوعي ، وبينما هو ملقى على قدم أستاذه رأى بعينه الداخلية حلما غير متوقع ، شاهد راهبا يلتحف بالرداء القرمزى ، حليق الرأس عارى القدمين ، يمسك فى يده اليمنى بعصا من الخيزران ، يقف قبالته ، فتذكر على الفور ميلاده السابق وسمع أستاذه يؤكد له ذلك قائلا فى وضوح :« هذا حق » وتذكر اسم الراهب ثم لم يعد يذكر شيئا آخر .. ان الشاكرا الخامسة تفتحت لديه فى ذلك اليوم .

وعندما رفع نفسه ببطء وواجه استاذه عن كثب ، رأى على وجهه ابتسامة راضية ، وتوالت على شاشة ذاكرته كالفيلم كل صور وذكريات حياتة السابقة فى تعاقب سريع ، وبدت له البحيرة والكهف الصغير المفتوح الذى قضى فيه الليلة الماضية وكل الأشياء الأخرى كما لو كانت مألوفة جدا لديه ، وتأكد انه عاش فى هذا المكان وتأمل وتقشف فى تجسده السابق ..

والتمع وجهه باشراقة حلوة دافئة ، ولمعت عيناه كالبللور الصافى ، وهبت نفحة من الفرح الذى لايوصف ملأت وجهه ، بل كل جسده ، وشعر كأنه ولد من جديد بادئا من حيث انتهى فى الميلاد السابق ، لقد انحل القيد .

وتحدث الرجل المقدس كأنه يهمس فى نبرة هادئة تناسب الأحداث ، قال . « سوف نقضى هنا اليوم والليلة ، ثم نغادر غدا صباحا إلى سونار لينجا . إذا شعرت بالجوع يمكنك أن تأكل ، ولكن مرة واحدة وليس بعد الغروب ، وإذا احتجت إلىّ سوف آتى اليك ، وإلا سوف أجيء غدا صباحا قبل الرحيل » .

لم يحدث أن شهد ساتياكام مثل هذه المحبة على وجه أستاذه ، وشعر أنه يريد أن يتقدم اليه ويحتضنه ، ولكنه امتنع تأدباً ، أما الحكيم الذى لايبدو عليه الزمن فقد بدا راضيا بتحكم تلميذه فى عواطفه ، وحياه وانصرف . وأخذ ساتياكام يراقبه وهو يسير ولكن ، فجأة ، اختفى فى الهواء كما فعلت البجعتان من قبل .

كان يعتقد من زمن أن أستاذه قادر على ذلك ، ولكن كانت هذه أول مرة يراه فيها يطير بالفعل ! وهذا التتابع السريع لاختفاء البجعتين ثم طيران الأستاذ أيقظ شيئا فى عموده الفقرى ، وسرعان ما استقر فى أبعاد جديدة من الوعى المفتوح .

وعندما استدار ليعود ماشيا على الضفة المعشوشبة للبحيرة ، شعر كأن قدميه لاتلمسان الأرض ! وأرغمه الفضول على أن ينظر إلى أسفل ، ولكنه لم يستطع أن يثنى رقبته ، وأحس كأن جسده تخترمه ذبذبات معينة ولايستطيع أن يحرك شيئا سوى انسانى عينيه ، ومن زاوية عينيه نظر إلى قدميه فوجدهما ترتفعان عدة بوصات فوق الأرض كان يمشى كالمعتاد ، ولكن فى الهواء !

وبدا جسده خفيفا للغاية وفى حالة غير مألوفة من الابتهاج والسعادة ، كان ببساطة يطفو فى الهواء وهو يتقدم ، وسرعان ما وصل إلى الركن الجنوبى الشرقى للبحيرة حيث يبدأ الجبل فى الارتفاع نحو الشمال ، ونظرت عيناه تلقائيا إلى قمة الجبل ، وجاءته رغبة أن يصل إلى هناك ، وفجأة طار جسده فى سرعة الفكر ، وإذا به واقف فوق القمة ! فداهمه شيء من الخوف وعدم التيقن وهو واقف هناك ، ترى كيف يستطيع النزول ؟ !

وألقى بنظره إلى الركن الشمالى الشرقى للبحيرة فشاهد أستاذه واقفا هناك ينظر اليه فى سرور ! وشعر ساتياكام بذبذبة أخرى واندفع كأن له جناحين نازلا ببطء إلى حيث يقف الأستاذ ، وعندما استقر على الأرض بجانبه شعر بالأمن ، وارتسمت ابتسامة رضا على شفتى الأستاذ وهو يقول له : « كفى هذا اليوم » واختفى مرة أخرى ..

■ ■ ■

كان الوقت فى الظهيرة ، والشمس تسطع نقية فى أعلى مدارها ، وأخذ اليوم يمر بهدوء ، وبياض الجليد يبدو كاللبن على خلفية سماء الهيمالايا الزرقاء حيث لاتوجد نتفة واحدة من السحاب ، أما الجبال ، البيضاء والخضراء ، فكانت تبدو أكثر حياة ، والبحيرة أكثر قداسة وهدوءا ، وسكن النسيم تماما وساد صمت عميق فى الجو .. حتى أن أى انسان يصبح مجبورا على التأمل والغوص فى داخل ذاته ..

أخذ ساتياكام يتجول فى هذه المناحى الجميلة معظم اليوم ، كان يجلس أحيانا هنا وهناك ثم يواصل السير ، تتعاقب على ذاكرته فتوحات ذلك اليوم .. المنظر السماوى للبجعتين المقدستين ، والسير فى الهواء ، والادراك الجديد لقيمة استاذه .. كل ذلك صار يتعاقب على ذهنه ، لم يكن يشعر

بالجوع ، ولا بالتعب أو الحزن ، وانما بالسعادة المطلقة فى هذا السلام الجديد ..

وجنحت الشمس نحو الغروب فتغير كل المنظر فى الهيمالايا : هواء بارد منعش .. فتنة فريدة .. سحر لايوصف ! وسار ساتياكام نحو كهفه المفتوح الذى قضى فيه الليلة الماضية ، وتطلع حوله مرة أخرى ، ثم جلس بهدوء فوق الملاءة فى وضع اللوتس فى مواجهة البحيرة ، وفجأة أخذت الأحجار والماء والجليد والحشائش الخضراء وكل شىء يهتز ويتدفق منه النور ، وبعد قليل فقدت الأشياء شخصيتها وشكلها ، وتحولت المادة إلى موجات من الضوء المتداخلة فيما بينها ، وسرعان ما صارت بحراً هائلاً من الموجات الضوئية تخفق وتنبض ولاتتوقف عن الحركة وهى لا تنى تتحول ، ولكنها لاتختلط ولاتتلاشى .

هذا الكم الهائل من الطاقة كان أقوى من أن تحدق فيه عينا ساتياكام ، ولم يعد قادرا على التمييز بين الرائى والمرئى ، وظل طيلة الليل فى حالة من الوجد المبارك لايستطيع أن ينام ، ولايستطيع أن يتذكر أى شىء .

بدا كأن عصورا قد انصرمت قبل أن يفتح عينيه للفجر المقترب ، واندفع الضوء إلى عينيه وهما تتفتحان فى بطء على الطبيعة المقدسة ، شعر كأن جسده كله قد تحرر وأن جهازه العصبى قد تفتح بالكامل ، وملأته قوة الحياة مع سيطرته عليها ، ولم يعد يشعر بالبرد أو أى شىء آخر .

كان فى امكانه أن يجلس هكذا لألف سنة قادمة ، ولكن شيئا مس كتفه اليسرى وهزه برفق ، فأدار وجهه الثقيل كأنه جبل ، ليرى أستاذه واقفا إلى جانبه ترتسم على وجهه لا معالم الحب فحسب ، وانما دلائل اخترام ولا مبالاة مقدسة أيضا .

ارتعش جسد ساتياكام قليلا ، وتراخت ساقاه وانفرطت يداه وفى لحظات هب واقفا من قعدته ولمس قدمى أستاذه بأصابعه شاعراً كأن علاقة جديدة أصبحت تربط بينهما .

قال الرجل المقدس فى هدوء كأنه يهمس : لنرحل عائدين إلى سونار لينجا .. اليوم سوف نطرق طريقا آخر أقصر من الطريق الذى جئنا منه ، انه شديد الانحدار والخطورة إذا كنا قطعناه فى مجيئنا .

وأخذ يهبطان الجبل فى بطء تجاه الشرق ثم نحو الجنوب ، كان ساتياكام يتبع خطى أستاذه ، ولم يتبادلا كلمة واحدة فى الطريق ، ولم يشعرا بالحاجة إلى الأكل ، وفى أوائل الظهيرة وصلا إلى كوخيهما ودخلاهما فى صمت .

■ ■ ■

تعاقبت الأيام والليالى كالمعتاد ، وكذلك تأملات ساتياكام ، وتخففت عنه الأعباء الخارجية كثيرا حيث لم يعد يأكل سوى مرة واحدة فى اليوم ، بل لم يكن يأكل فى بعض الأحيان أياما متوالية ، ولذا قلت زياراته للقرية مع قلة احتياجاته ، وكثيرا ما كان القرويون يحضرون بأنفسهم احتياجاته اليه بعد أن عرفوا أن ساتياكام مشغول جدا بواجباته اليومية .

ذات يوم ، وهما يجلسان خارج كوخ الأستاذ ، قال له الأستاذ : ساتياكام ، يبدو أن هناك شيئا يشغل بالك .

قال ساتياكام وقد بدت عليه مظاهر الألم : ـ نعم يامهراجا ، هناك سؤال يشغل بالى منذ أيام .

قاطعه الحكيم :

— هذا السؤال هو : ما الذى منعك من انهاء رحلتك فى ميلادك السابق ، وما الذى عليك أن تنجزه فى ميلادك الحالى ، فيما يتعلق بالحياة على هذا الكوكب الأرضى ؟

نظر اليه ساتياكام باحترام بالغ ، ولم ينطق بكلمة واحدة .

وواصل الأستاذ كلامه قائلا : يبدو أن بعض الرغبات القليلة لم تتحقق فى تجسدك السابق ، وإلا كان فى امكانك بسهولة أن تنهى كل شىء آنذاك ، وهكذا فإن لاوعيك احتفظ ببعض هذه الرغبات فى حياتك هذه وقد حاولت جهدى أن أحلها ، ولكنها قوية جدا ، مثل النقش فى الحجر ، عميقة الجذور تعود ربما إلى أكثر من ميلاد سابق ، ثم تخلفت لديك هذه الرغبات على أمل أن تحلها فيما بعد ، وعندما انتهيت من استعداداتك المطلوبة كان الوقت قد أزف »

وصمت الأستاذ قليلا ثم أكمل : « كان عليك أن تغادر جسدك المادى ، وعندما كنا عند منبع ساراسواتى فى الميلاد السابق تذكر اننى أخبرتك أن واجبات ميلادك السابق مرتبطة بميلادك الحالى ، ولأنك كنت متقشفا بشدة

فى حياتك الماضية عليك أن تحقق أهدافا يومية متقدمة فى ميلادك الحالى .
ولكنى أخشى الآن أن تكون فترة حياتك التى لم تحقق فيها الرغبات قد اقتربت ، وما لم تتحقق هذه الرغبات ، فلن تستطيع اتمام الرحلة نحو التنوير الكامل ، قد يبدو باعثا على السخرية انه بالرغم من التقدم والبركات التى استطعت أن تنجزها فإن هذه الرغبات لازالت باقية كما هى ، ولكن تلك هى القوانين الكونية : ما لم تتنازل عن ذاتك لن تستطيع أن تستهلك رغباتك .
ظلَ ساتياكام يسمع بهدوء إلى أن انتهى الأستاذ من حديثه ، لم يجد صعوبة فى قبول كل ما قاله ، ولكن الألم ظل يلازمه ، كان يتمنى أن يتحرر من رغباته دون أن يجهد نفسه فى محاربتها !
قرأ الأستاذ ما يدور فى ذهنه ، وقال له فى عطف وحنان : ساتياكام ، لحسن الحظ أنت لا تزال صغيرا فى حياتك الحالية ، ومن ثم يمكنك أن تستهلك بعض الوقت والجهد فى ترويض رغباتك القوية الباقية ، ومن اللازم الآن أن تنهى رغباتك فى حياتك هذه ، ولا تنسى أن تحقيق الرغبة لايؤدى مباشرة إلى الخلاص ، وانما هو عامل مساعد فحسب .
قال ساتياكام فى رنة من الحزن :
— ولكن ما العمل لو استهلك التحرر من الرغبات مدة طويلة أو حتى الحياة بأكملها ؟ عندئذ أكون كمن لم يحقق شيئا مرة أخرى !
قال الأستاذ يطمئنه :
— أعرف تماما ما يقلقك .. ويمكننى أن أؤكد لك أن حياتك الحالية لن تنتهى ما لم يكن فى امكانك أن تستأنف المرحلة الأخيرة فى الرحلة ، وأؤكد لك انك سوف تستطيع أن ترشد نفسك بسلامة إلى شاطىء النجاة ..
ارتاح ساتياكام قليلا ، ولكن كان لديه سؤال أخير : سيدى ، هل يمكنك أن تخبرنى عن هذه الرغبات التى لايزال علىّ العمل للخلاص منها ؟
إعتدل الحكيم العارف ببطء فى جلسته ، وقال دون أن ينظر فى وجهه : « سوف تعرفها فى زمن قصير » ، ثم قام وانصرف ..
ظل ساتياكام غارقا فى الفكر ولكنه لم يستطع أن يرى بوضوح ما يريد أن

يعلمه له الأستاذ وندت عنه تنهيدة عميقة ، ثم هب واقفا وهو يتمتم « علم ذلك عند الله » .

■ ■ ■

بعد هذه المحادثة الأخيرة مع الأستاذ ظل ذهن ساتياكام مشغولا بموضوع الرغبات والمصير ، وبدأ يفقد قوة تركيزه ، ولم يعد فى امكانه الجلوس للتأمل طويلا كما كان يفعل فى الماضى ، وكثيرا ما كان يبدو عليه القلق دون سبب واضح ، مما أدى به إلى ارتكاب أخطاء صغيرة فى واجباته اليومية ، وكان يأسف لهذه الأخطاء ولكنه لا يلوم نفسه عليها ، إذ أصبح الآن يرى أن الخطأ من طبيعة البشر !

وبدأ يهتز لديه اعتقاده السابق بأن النظام الصارم سيؤدى به إلى الكمال ، ولكنه لمَ يعد يندب حظه ، بل ربما كان يبتهج فى أعماق قلبه بهذه الهفوات الانسانية ! ورغم انه لم يكن يقصد ذلك ، فقد أصبح أقل اهتماما بحضور أستاذه وأكثر انشغالا بوخزاته الجديدة ، وصار أكثر ابتهاجا بالتمتع بالمراعى الصحية فى السهول عن تسلق الجبل الصلد للتمتع بقمم الحكمة القاسية .

مضت الأيام بطيئة متثاقلة ، وقلت قدرة ساتياكام على النوم المريح الخالى من الأتراح ، وكثيرا ما كان يخرج من كوخه فى منتصف الليل ليجلس فى الخارج من أجل لاشىء ! وأحيانا ترتفع عيناه إلى الضفة المقابلة للنهر حيث تقع قرية سونار ، وكانت مصابيح الزيت الشاحبة على أكوخ القرية ومنازل الفلاحين تستهويه ، وتملك عليه لبه بعض الوقت ..

وفى الليالى القمرية كانت السماء المنيرة تبعث اليه برسالة مجهولة لايستطيع أن يعرف ما وراءها ، وكان يشعر أن ضغطا عنيفا يعتمل فى قلبه يكاد يمزقه ، ولكنه لم يشعر بحاجة إلى استشارة أستاذه ، كأن شيئا يمنعه من ذلك .

لم تعد السماء التى تمتد أميالا وراء أميال توحى اليه بالاتساع ، بل أصبح يفضل عليها أن يمشى فى الأرض لتلبية بعض المطالب العاجلة . وخلال أيام قليلة أصبح ساتيا كام كالطفل الصغير لا يكاد يعرف شيئا ، ويتعجب لماذا كل ذلك ! لم تعد مباهج الهيمالايا السماوية توحى إليه بالنشوة كما

كانت تفعل من قبل ، بل على العكس تبدو جافة قاحلة مجدبة ، وأصبح قلبه مثقلا ، أليست الأرض كبيرة بما فيه الكفاية وقمينة بإدهاش المرء والايحاء إليه إذا تجول فيها وقرأ الحياة كالكتاب المفتوح ؟ هذا هو السؤال الذى ظل يلح على خاطره !

■ ■ ■

صباح يوم باكر سمع طرقة على بابه ، وبالرغم من أن ذلك لم يكن مألوفا فقد شعر بارتياح خفى ، فقام بهدوء من فوق ملاءته وفتح الباب ، وجد استاذه واقفا فى الخارج ، فتقدم ساتيا كام ولمس أطراف قدمه ، كان الرجل المقدس يبدو أكثر رقة من المعتاد ، وخطا إلى داخل كوخ ساتيا كام ، وجلس على ملاءته غير منتظر دعوة لذلك ، ولأول مرة لم يجد ساتيا كام غضاضة فى أن يجلس على نفس المستوى وفوق نفس المقعد مع أستاذه ، وشعر كأنه ابن يجلس إلى أبيه الذى تحدث قائلا :

— ساتيا كام اننى أحس بمشاعرك .. وبدون اللجوء إلى كلمات لا لزوم لها مضى قائلا :

— حان الوقت لك للقيام بجولاتك والبحث بنفسك عما ترغب فيه .

لم يشعر ساتيا كام بالحاجة إلى مناقشة حكمة الرجل المقدس ، فما بالك بالاعتراض عليها ؟ ! فطأطأ رأسه وانهمرت الدموع من عينيه ، لا يدرى لماذا كان يبكى ، ولم يجد الكلمات التى يعبر بها عن نفسه .

وسأله الحكيم بنبرة حانية : هل لديك أسئلة أخرى قبل أن تدخل اليوم الفصل التالى من حياتك ؟

سأل ساتياكام فى خجل ورأسه مازال منحنيا :

— هل يمكنك أن ترشدنى ياسيدى ؟ أين يجب أن أذهب ، وماذا يجب أن أفعل ؟ اننى لا أعرف ما أريد .

وبدا كأنه غير معترض على مغادرة الهمالايا رغم ذلك ..

أجاب الحكيم : عندما تهبط إلى الوديان السفلى والسهول ، سوف تحصل على ما تحتاج إليه ، ان احتياجاتك ستسعى إليك .

رفع ساتيا كام وجهه الذى تغمره الدموع وسأل وهو يكاد يقطع الأمل فى نبرة كلها رجاء : هل سأراك مرة أخرى ؟

رد الحكيم بإجلال ومودة :

— فى الوقت المناسب ، وفى المكان المناسب ، عندما تحتاجنى ، سوف تجدنى إلى جانبك .

[٢]

الأحلام .. والرياح

وهطلت الأمطار
طول اليوم

أخذت الرياح تهب بقوة من الجنوب الشرقى ، من ناحية خليج البنغال ، كان هذا هو موسم زراعة الأرز فى جنوب وشرق الهند ، وثمة مساحات شاسعة من حقول البنغال تكاد تكون غارقة بالمياه ، والعيدان الخضراء الصغيرة بدأت ترفع رءوسها فوق سطح الحقول المروية بالماء .

وكان الفلاحون يسترخون فى منازلهم الطينية بعد أيام كثيرة من العمل المضنى فى الحقول ، كانوا معروفين بأمانتهم واحترامهم للذات وقدرتهم على التحمل ، وقد يحدث أحيانا أن يعود قروى متأخرا يشق طريقه إلى بيته فى الطرق المبتلة وهو عارى القدمين وقد حمل صندله فى يد ورفع بالأخرى طرف ردائه إلى أعلى ركبتيه ، وإذ يمر بمنزل يعرف أهله ، يرفع صوته محييا ، فيجيبه أصحاب البيت بالتحية من الداخل ، ويتبادل معهم كلمة أو كلمتين ثم يمضى فى طريقه إلى بيته ، وفيما عدا ذلك من نشاطات لا يكاد يلحظه أحد .

وفى الليالى تتناهى من بعد أصوات الأغانى الشعبية البنغالية فى نغم خفيض تتخلله ضربات الطبول فتضفى على الجو سحرا غامضا .

■ ■ ■

تقع قرية كادامبينى على مسافة أربعة أميال من آخر محطة للسكة الحديد على طريق ضيق مترب يؤدى من المحطة إلى القرية لا يستطيع أن يقطعه سوى المشاة على أرجلهم أو العربات التى تجرها الثيران ، وعلى مشارف القرية يوجد معبد كالى الشهير ، المركز الرئيسى لمراسم التانترا[1] . وإلى جواره ساحة حرق الجثث للمتوفين ، وفى هذا المكان يعيش ممارسو التانترا يزاولون رياضتهم العنيفة كل مساء .

وكان الناس العاديون يجفلون عن زيارة المكان بعد هبوط الظلام ، فهناك قصص كثيرة عن أحداث مخيفة جعلت الناس يخافون الاقتراب ، ولكن لم يكن الجميع على هذا النحو ، فبعض المخلصين لهذه العبادة السحرية الغامضة كانوا يأتون يوميا بعد انسدال الظلام فيدخلون أرض المحرقة ليمارسوا طقوسهم أو يجلسوا إلى جانب سور المعبد ، وقبيل الفجر ينسلون عائدين إلى بيوتهم واحدا بعد الآخر .

---

(١) التانترا : أسلوب اليوجا القائم على تنشيط الجهاز العصبي .

ولكن الأمر تغير تماما ذات يوم عندما وصلت بهيراڤى[1] شابة إلى المعبد ، واحتلت جانبا من الشرفة ، كانت صامتة على الدوام ، ولم يرها أحد تأكل أى طعام ، ولم تكن تنام إلا قليلا ، معظم الوقت عيناها مغلقتان فى تأمل عميق ، وكان لا يبدو عليها الاهتمام بالوسط الخارجى المحيط بها .

وعندما انتشرت أنباء وصولها فى القرى المجاورة بدأت شراذم من الناس تنهال على المعبد ليلا ونهارا لرؤيتها ، كانت نادرا ما تفتح عينيها لتنظر إلى الناس الواقفين أمامها ، ولا تكاد ترفع ناظريها عن المستوى الذى تنظر فيه ، وأخذ الناس تدريجيا يجلبون إليها مختلف الهدايا فينحنون أمامها ويتركون هداياهم تحت قدميها ، ويمكثون انتظارا لبركاتها ، أما هى فغارقة فى الصمت ، فإذا حانت منها التفاتة إلى الزائرين شعروا بالرضا ، فينصرفون ، ويبقى بعضهم فى الانتظار ساعات طويلة .

وقبل مضى وقت طويل بدأت القصص تنتشر عن قدرتها على شفاء الأمراض ، وحل المشاكل ، وتحقيق النجاح ، فتصل جماهير أكبر حتى يصبح من العسير على الواقف بين الجمع رؤية وجهها ، وتطوع البعض لتنظيم الجماهير بحيث يقف الزائرون فى صفوف كى يتمكنوا أن يروها واحدا بعد الآخر ، وغالبا ما كانوا يخاطبونها بلقب ديڤى[2]

ولم تكن الأمطار المنهلة تعوق معظم الناس ، وامتلأت ساحة المعبد الفسيحة بمئات الناس ، بل امتدوا إلى ساحة الحرق الرهيبة ، فماذا يخيفهم مادامت ديڤى قريبة منهم .

كانت بهيراڤى فى الثانية والعشرين من العمر ، نحيلة تميل إلى الطول ، ذات بشرة سمراء ، وكان لها وجه طويل متناسب الملامح وأطراف متناسقة ، وعادة ما تعقص شعرها الأسود خلف عنقها ، ولكن عندما يكون شعرها محلولا يصل إلى خصرها النحيل ، وعندما تفتح عينيها الواسعتين ذات الرموش الطويلة يتذكر الزائرون عيون الغزال .

ولم تكن ديڤى يبدو عليها الاهتمام بأحد على وجه الخصوص ، ولكن

---

(١) بهيراڤى : امرأة تزاول مراسم التانترا .

(٢) ديڤى : معناها الحرفى إلهة ، وتستخدم فى مخاطبة المرأة المقدسة .

ملامحها القوية الهادئة الساكنة جعلت كل واحد يأنس فى وجودها .

بعد شهور قليلة من وصول ديفى إلى المعبد شوهد رجل مقدس شاب يقف فى الطابور ، كانت تغمره مياه المطر وأفسح له المتطوعون مكانا وساعدوه على الوصول إلى بهيراقى بإعطائه الأولوية .

ورمشت عينا ديفى وتفتحتا على الرجل المقدس ، وبعد تردد قصير واضح افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة ، وتجاوب الرجل المقدس الغريب بابتسامة خجلى ، وظل واقفا فى مكانه بعض الوقت ، وطوال فترة وقوفه لم تغلق ديفى عينيها ، كانت هذه أول مرة تشاهد فيها مهتمه بشخص على وجه التحديد ! ولكن سرعان ما تحرك الرجل المقدس فى الطابور ، وعادت بهيراقى إلى ما كانت عليه .

وفى كل يوم ، ما إن يصل الرجل المقدس ، حتى يفسح له المتطوعون مكانا بالقرب من بهيراقى ، وأخذ مكوثه يطول تدريجيا ، وفى بعض الأحيان يمتد طول النهار بل وإلى ساعة متأخرة من الليل .

وبدأت ديفى تنطق كلمة أو كلمتين ، سألته ذات مرة عن اسمه ، فأجاب فى نبرة بسيطة : « ساتيا كام » .

■ ■ ■

بعد أن قضى ساتياكام ثلاثة أعوام مع أستاذه فى الهمالايا ، وتجول لمدة عام بحثا عن تعاليم التانترا قد شمال ووسط الهند وصل أخيرا إلى البنغال ، وكانت لحيته قد امتلأت وطالت ، وقد بلغ الخامسة والعشرين وصار أكثر نحافة عما قبل ، ولكن وجهه ظل مشرقا كأنه لا ينتمى إلى هذا العالم !

ذات يوم بينما كان ساتياكام يتجول فى كلكتا قابل رجلا عجوزا ذا لحية فضية مفهافة وعينين براقتين ، وأرشده الرجل العجوز إلى قرية كادا مبينى ليتعلم التانترا ، وما أن وصل إلى معبد كالى حتى أرشدوه إلى ساحة الحرق ، وهناك التقى مع كابالاك[1] وهو رجل فى أواسط العمر يميل إلى البدانة عارى الجسد إلا من مئزر يلفه حول وسطه ، وكان يجلس فى كوخ مصنوع من

---

(١) كابالاك : كابال معناها الحرق جمجمة ، وهو لقب يطلق على الرجل الذى يجلس فوق الجماجم ليزاول مراسم التانترا .

الطين وله سقف من القش ، ويرتكز الكرسى الذى يجلس فوقه على خمس جماجم بشرية ، وأمامه كتلة من الخشب تشتعل فيها النيران .

حيا كابالاك ساتياكام بطريقة جافة ، ولكنه ظل ثابتا فى مكانه ، ورد ساتياكام التحية فى ود وجلس فى مواجهة النار

وتساءل كابالاك بقسوة والشرر يكاد يتطاير من عينيه : ماذا تريد ؟

رد ساتياكام فى هدوء :

— أريد أن أتعلم التانترا

قال كابالاك بنفس اللهجة :

— من أرشدك إلى هذا المكان ؟

أخذ ساتياكام فى أدب يقص حكاية الرجل العجوز الذى التقى به فى كلكتا ، وفجأة أشرقت ابتسامة على شفتى كابالاك ، ولم يكد ساتياكام يصدق ما يراه ! فقد تحول وجه كابالاك من القسوة والتوحش إلى وجه يقطر حلاوة وعذوبة ورقة .. ياله من تناقض بين الحالين !

وتساءل كابالاك بود : هل تعرف من هو ذلك الرجل العجوز ؟

أجاب ساتياكام الذى بدا مندهشا ولكنه مسرور :

— لست متأكدا ، ولكن يخطر لى الآن أنه ربما كان أستاذى القديم !

قال كابالاك فى احترام بالغ :

— أنت على حق ، إنه أستاذى أنا أيضا .. أنت وأنا تلميذان له .

بدا ساتياكام مندهشا ولم يستطع أن يمنع نفسه عن التساؤل :

— ولكن طريقك يختلف تماما عن طريقى ، على الأقل حتى هذه النقطة ، إنهما مختلفان تماما !

— إنه يعرف كل الطرق .. ليس هذان الطريقان فحسب ، ولكنه يعرف أيضا مختلف الطرق القديمة التى أصبحت قفرة تماما الآن ، بالنسبة له ليس هناك طريق قفر ، ولكن عدد المرتادين فى أى طريق يزداد أو يقل نتيجة لتأثير تطور ما ، ونحن نسمى الطريق قفرا أو غير قفر طبقا لعدد مرتاديه .

تفكر ساتياكام مليا ، واعتدل فى جلسته ، ثم قال فى لهجة رقيقة :

— هل تعرف من هو أستاذنا هذا ؟

قال كابالاك معترفا :

— بودى لو كان فى استطاعتى أن أخبرك ! إنه غامض بالنسبة لى أيضا .. يكفينى أن أعرف أنه يرشدنى وأنا سعيد بذلك

ساد صمت طويل ، وأغلق ساتياكام عينيه متأملا ، وبعد فترة طقطقت النار فى كتلة الخشب ، ففتح ساتياكام عينيه ليسمع جليسه يسأله :

— نسيت أن أسألك ما اسمك ؟

— ساتياكام

وقال كابالاك وهو يحرك النار وينفخ فيها :

— هل لك فى بعض الشاى ؟

رد ساتياكام بأدب :

— لا .. شكرا .. أنا لا أشرب الشاى

قال كابالاك : « سآخذ أنا بعض الشاى » وأحضر براد شاى مسودا بالدخان يبدو كأنه لم يغسل مرة واحدة منذ حصل عليه أو أحضر له !

وقال كابالاك وهو يرشف الشاى فى قدح قديم مهشم بعض الشىء :

— ساتياكام .. أن نهر الجانج (آدى جنجا) يتدفق عند حافة أرض المحرقة على مسافة مائتى ياردة من هنا ، اذهب إلى النهر واغتسل ، والليلة سوف أبدأ معك بعض الدروس الأولية فى التانترا ، ولكن ضع فى ذهنك أننى لست أستاذك ، وإنما مجرد أخ أكبر ، أرقى منك بعض الشىء فى هذا النظام ، يشرفنى أن أعلمك التانترا لأن هذه خدمة لأستاذى ، إنك بالفعل روح متقدمة وقد حصلت على رصيد كبير من حيواتك السابقة

— هل لى أن أسألك سؤالا ، يا سيدى ؟

— لا تقل « سيدى » ، يكفى أن تنادينى « كابالاك » هات ما عندك .

— عندما تقدمت إليك أول الأمر اليوم ، كانت تبدو عليك القسوة والتوحش ، هل يمكنك أن تشرح لى لماذا كان لك هذا المظهر ؟

— أولا : إن هذا المظهر يحمينى من العلمانيين والفضوليين الذين قد يسببون لى ازعاجا ، وثانيا : كنت اختبر شخصيتك وصبرك وردود أفعالك قبل أن أشرع فى تعليمك التانترا .

وسكت برهة ثم أكمل : ويسرنى أنك اجتزت الاختبار بنجاح وبدرجة

عالية من النضج» .

انحنى ساتياكام أمامه ، وقام ببطء ، متخذا طريقه نحو النهر .

■ ■ ■

كانت الليلة هى مولد الهلال الجديد .. الظلام دامس ، ونسيم خفيف يداعب الغصون ، وثمة نباح كلب متقطع فى ركن ساحة الحرق يقطع الصمت الرهيب فى تلك الليلة الموحشة .

وسط أجمة من الشجر الكثيف يقع كوخ ساتياكام المصنوع من الطين والقش ، يغلفه الظلام الكثيف ، وتشتعل على أرضيته الطينية كتلة خشبية صغيرة وعلى جانبيها يجلس كبالاك وساتياكام يواجه كل منهما الآخر ويرتدى كل منهما مئزرا حول وسطه فقط ويغطيان جسميهما برماد الخشب ، جالسين بلا حراك .

بدأ كابالاك الحديث قائلا :

— كل ما سوف أعلمه لك من بركات سيدى أننى مجرد آلة ، شعلة فى يد سيدى وأستاذى ، وأنا بدورى أشعل أدوات أخرى ، غير أنى مسرور بصفة خاصة لأنك متقدم بالفعل فى فنون اليوجا ، لذا يمكننى أن أبدأ معك بدروس متقدمة .

ولكن قبل أن أبدأ معك الدرس الأول يهمنى أن أتأكد من أنك تفهم معنى الايمان المقصود ، فكلما كان لديك إيمان كانت النتائج أفضل ، فالايمان يؤدى إلى الشجاعة ، وهى مطلوبة بصفة خاصة فى التانترا لممارسة أساليب ما وراء الطبيعة ، ونسميها وراء الطبيعة لأنها مخالفة للمألوف فى الأبعاد الطبيعية ، ومن هنا تمس الحاجة إلى الإيمان إزاء هذه الظاهرة غير المألوفة .

سوف نبدأ بأسلوب نادا يوجا[1] ، إنه إحدى طرق التركيز من خلال الأصوات .. هذه الأصوات تتردد فى داخلك كلما غصت فى الأعماق ، وهى تبدأ بالأصوات القوية ، وتنتهى بالأصوات الخافتة ، والأكثر خفوتا ، حتى يصل التركيز إلى قمته فى صوت السمو المطلق .

---

(١) نادا يوجا : يوجا الصوت .

هناك سبعة أصوات كبرى ، الاثنان الأولان هما ضربة الكريكيت القصيرة وضربة الكريكيت الطويلة ، والأصوات الخمسة الأخرى هى : ضربات الطبول وارتطام السحب السوداء ، وصوت المحارة ، وصوت الأجراس ، وصوت الفلوت .

فى بعض الأحيان سوف تشعر بأن هذه الأصوات تأتى من خارجك ، ولكن إذا فتحت عينيك ستجد أن هذه الأصوات قد اختفت .

[illegible] أنك متقدم بالفعل فى أساليب التركيز فلن يستغرق الأمر معك وقتا [illegible]حتى تجيده . عليك أولا أن تركز على صوت كرة الكريكيت واستمر على ذلك ، وسوف تجد أن أحد الأصوات قد أدى إلى الآخر كلما تعمقت فى التركيز .

سأل ساتياكام :

— ماذا تقصد بكلمة نادا ؟

قال كابالاك شارحا :

— نادا هو الصوت وهى خاصية أصيلة فى الفضاء أو الصمت ، إنها تمتد فى الفضاء كالأمواج فى المحيط ، والصوت له ثلاث مراحل : شفهى ، ودقيق ، وعرضى

والصوت الدقيق أو نادا يمكن أن يكون مسموعا ، ولكن ليس بالضرورة أن يكون كذلك دائما ، فإن المقطع يختفى مع الصوت ، أما الصوت العرضى فإنه بدون ترددات ، وأحيانا يسمى صوت الصمت .

والإرادة المنطوية فى الطبيعة تخلق هذه الترددات التى تسمى نادا أو الصوت ، والنادا تحوى كل امكانيات الصوت ، وكل الأصوات ابتداء من صوت الصمت إلى صوت الانفعالات مجرد تركيبات مختلفة من الترددات أو الموجات .

ولا يوجد هناك فراغ مطلقا .. الكون عبارة عن سلسلة متصلة من ظاهرة الترددات ، على المستوى المسموع تؤدى موجات النادا إلى ظواهر مختلفة مثل الضوء والحرارة والأبعاد وما إلى ذلك .

وتوقف كابالاك برهة عن الكلام ، بينما كان ساتياكام منصتا بشدة ، ثم واصل كابالاك حديثه :

— سوف أتركك هنا الليلة لممارسة الأسلوب ولكن قبل أن أتركك أود أن أرى ما إذا كنت قد بدأت تسمع الصوت الأول .. إغلق عينيك وحاول أن تعرف ما إذا كنت قد بدأت تسمع شيئا .

أغلق ساتياكام عينيه بهدوء ، وانتظر ، وبعد برهة تأكد أنه لا يستطيع أن يميز شيئا .

قال كابالاك :

— سوف تسمع الصوت إذا انتظرت فى صبر .. ان الصوت ذا المدى القصير - وهو صوت كرة الكريكيت - يتردد طول الوقت فى أى شخص ، والأمر لا يتطلب أكثر من تدريب أذنك الداخلية حتى تبدأ فى الإحساس به ثم تتصل به الأصوات الأخرى .

بينما كان كابالاك لا يزال يتكلم بدأ ساتياكام يذوب فى صوت هادىء منتظم مستمر كضربات كرة الكريكيت ، وحلت على وجهة غلالة من السلام وبدا غير واع بأى شىء حوله ..

قام كابالاك بهدوء من مقعده ، وغادر الكوخ

■ ■ ■

توالت الأيام فى هدوء وأخذ ساتياكام يقضى مزيدا من الوقت داخل كوخه ، فكان خلال الليالى يستغرق فى تدريباته الروحية ويقضى جزءا من النهار فى الاستجمام أو الاستحمام فى نهر الجانج ، وكان يأكل مرة واحدة فى اليوم وجبة خفيفة ، ويمضى طيلة الوقت صامتا ، وكان يلتقى هو وكابالاك عندما يقران بالحاجة إلى اللقاء ويتحدثان حول النادا يوجا ، ولم يجد ساتياكام صعوبة فى التقدم فى هذا الأسلوب ، بل إنه وصل إلى الصوت الخامس خلال حوالى ثلاثة أشهر .

وبدأ ساتياكام ينسى العالم من حوله ، بل إنه كان يغفل أحيانا عن تبادل التحية المعتادة مع كابالاك ، وكان من الممكن أن تحمل تدريبات النادا يوجا ساتياكام إلى منتهاها لولا أنباء مقدم بهيرافى ، وذيوع قصتها بين الناس .

وذات يوم بينما بدأ كابالاك يتحدث عن بهيرافى ظهر الاهتمام الشديد على ساتياكام وأراد أن يعرف المزيد عنها ، وكان أكبر ما يجذبه فيها تفوقها فى

التانترا فى تلك السن المبكرة ! وشعر بالرغبة الشديدة فى رؤيتها بمجرد أن أومأ إليه كابالاك بذلك .

■ ■ ■

أصبح معظم الحديث بين ساتياكام وكابالاك يدور حول بهيراڤى ، وبمجرد أن يعود ساتياكام من رؤيتها حتى يسأله كابالاك عن مشاعره ، فيتحمس ساتياكام وهو يتحدث عن حواراته مع بهيراڤى أكثر من حديثه عن النادا يوجا ، ولم يكن كابالاك ينتقده على ذلك كما لو كان ذلك مقدرا له أن يكون ، وكما لو كانت تدريبات ساتياكام قد انتهت .

لم يعد التجاذب بين ساتياكام وبهيراڤى سرا على أحد ، وأصبح الكثيرون من الناس يتحدثون عما إذا كان ذلك لائقا أو غير لائق ، ولكن أحدا منهم لم تواته الشجاعة على الاعتراض صراحة أو التنقيب أكثر ، وبدت العملية كلها أشبه بنتاج أمر مقدس ، وأخذ الناس حثيثا يأخذونها ببساطة وشكل طبيعى ويعدون الاثنين كجزء من عشيرتهم وحياتهم .

بالطبع كان بعض الناس يرفضون ذلك كله ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا سوى أن يثرثروا ثم يمضوا فى حال سبيلهم ، وظل الناس يندفعون إلى زيارة بهيراڤى كالمعتاد .

وكثيرا ما كانت بهيراڤى وساتياكام يجلسان معا ، بينما الناس يقدمون إليهما التحية والعطايا طالبين مقابل ذلك بركاتهما ، ولم يكن ساتياكام يتردد فى مس رءوسهم بيديه الحانيتين .

وانتهى العام باحتفال دورجا يوجا الكبير ، وتلاه احتفال كالى يوجا المقدس لدي اتباع التانترا ، وانهمرت زرافات من الناس على المعبد نهارا وليلا سعداء بالمناسبتين على السواء : كالى يوجا ورؤية الثنائى المقدس بهيراڤى وساتياكام فى صورة بشرية .

ولكن مع ازدياد عيادة الناس لهما ودفء المحبة بين الاثنين .. بدأ ساتياكام يستشعر الخشية مما يحدث ويتساءل عن شرعية العلاقة بينه وبين تلك المرأة .

ولاحظ كابالاك الحيرة التى ألمت بساتياكام ، فدعاه ذات يوم إلى حوار على

ضفاف نهر الكانج حيث أعرب ساتياكام عن مخاوفه إزاء تأثير هذه العلاقة بين الرجل والمرأة على تدريباته الروحية .. لم يكن يستطيع أن يخفى حبه لبهيرافى ، وكذلك لا يستطيع إخفاء شكوكه التقليدية ، فهو يعرف مدى قوة الإغراء ، واستمع له كابالاك فى صبر وحب ثم سادت بينهما فترة طويلة من الصمت بدا ساتياكام خلالها مضطربا وحزينا للمرة الثانية ، وتذكر أول مرة داهمه فيها الحزن ، كانت عندما دخل أستاذه عليه كوخه آخر مرة فى جبال الهيمالايا .

أخذت مياه الكانج الطينية تتدفق فى بطء وهدوء ، وبدأ كابالاك يتحدث فى نبرات قوية واضحة دون أن يرفع وجهه :

— « ساتياكام .. لقد أرسلت إلى هنا لهذا الغرض بالتحديد ، ولم يكن هدف تعلم التانترا سوى مجرد مبرر ، رغم أنه ليس بالمبرر الأجوف على أى حال ، وأستطيع أن أقول بالتحديد .. لقد كان عليك أن تتعلم التانترا لتعرف حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة ، ليس على المستوى الذى يفهمه الناس العاديون ، وإنما على مستوى أعلى باعتبارها الظاهرة الروحية للخليقة .

« تذكر ، يا ساتياكام ، أن كل ذكر لديه جزء من الأنثى فى داخله ، وكل أنثى لديها جزء من الذكر فى داخلها ، وطبقا لما تقوله تعاليم التانترا يتكون الرجل من أربعة عناصر ذكورية وثلاثة عناصر أنثوية ، وتتكون المرأة من أربعة عناصر أنثوية وثلاثة عناصر رجولية ، وهذا الاختلاف فى عنصر واحد هو ما يجعل الرجل رجلا ، والمرأة امرأة ، وفيما عدا ذلك ليس هناك فارق جوهرى بينهما ، فالاثنان خلقا بنفس الطريقة من أجل أن تستمر الخليقة ، والمرأة تجسيد للطبيعة التى هى جزء من الرجل .

« وفيما عدا هذا الاختلاف فى العنصر الواحد نجد أن الاثنين لهما نفس الصفات : المولد والوفاة ، الحب والكراهية ، التسامح والغضب ، الشهوة والعفة ، العطش والجوع ، الخوف والشجاعة ، العواطف ، الرغبة فى الحياة ، البحث عن السعادة ، وما إلى ذلك ، وباتصالهما يتحدان فى سبعة عناصر مما يجعل اتحادهما ممكنا .

وتنهد كابالاك فى عمق ونظر إلى ساتياكام الذى كان يستمع فى إصغاء تام ، وأكمل :

— ومهما أحرزت من كمال فى حد ذاتك ستظل ناقصا ما لم تتجاوب مع الطبيعة التى تجسدها المرأة ، والطبيعة الكونية ـ التى غالبا ما نسميها الأم المقدسة ـ لا تتخللك أنت فقط وإنما تتخلل المرأة أيضا ! والطرق التقليدية فى معاملة المرأة ليست عملية بالنسبة للرجل الذى يريد تحقيق الكمال ، وتذكر ان الإغراء كلمة اخرى تعبر عن الخوف !

• لست اقصد ان اؤكد العلاقة على هذا النحو ، وإنما أريدك أن تعرف سر هذه العلاقة . بمجرد ان تتحقق ان المراة فيك ، وأن الرجل فى المرأة أيضا ، لن تجد من الضرورى الكفاح من اجل ان تحصل أو لا تحصل على المرأة .

سأل ساتياكام :

— هل تعنى انه بمجرد ان يعرف الرجل حقيقته من الداخل ، بما فى ذلك الجانب الأنثوى . تصبح الحاجة إلى وجود المرأة او عدم وجودها غير هامة ، ونفس الشىء يصدق على المرأة ايضا ؟

استمر كابالاك :

— تماما .. بمعنى آخر .. لن يبقى الرجل والمرأة بمثابة إغراء كل منهما للآخر بل يصبحان مكملين لبعضيهما .. عندما تعرف طبيعتك الداخلية حقا ستجد أن العالم الخارجى ، بما فيه الجنس الآخر ، مجرد انعكاس لهذه الطبيعة ، وباختصار .. مهما كان الضعف او القوة فى نسيجك الذهنى ، فإن الإغراء او التسيد سوف يتبعه من الخارج . وأعظم شىء فى الوجود هو المعرفة التى تخلصك من الإغراء والضعف وتجعلك ترى الحقيقة . وبالتالى لا يهم أن تكون لك علاقة بامرأة أو لا تكون . وبهذا تتحرر من الإغراء والاجتناب على السواء .

حملق ساتياكام فى وجه كابالاك وسأل بحدة :

— لماذا فضلت ألا تتخذ لك زوجة مادمت تعرف سر العلاقة بين الرجل والمرأة ؟

ابتسم كابالاك ورفع رأسه بجلال واستدار بجذعه فى مواجهة ساتياكام . وبتحكم شديد بدأ يجيب على سؤاله :

— منذا الذى أعلمك أننى لم اتخذ لى زوجة سواء فى حياتى الحالية أو السابقة ؟ وألم أقل لك أنك بمجرد ان تعرف السر الغامض فى طبيعتك

لن تكون بحاجة إلى مثل هذه العلاقة ؟

ونظر كابالاك بانتصار إلى ساتياكام وأطلق صاروخه الأخير :

— لقد تجنبت أن اصطحب زوجة معى ، إذا كان ذلك هو ما تعنيه ، لا من أجل أن أتوقى الإغراء أو السقوط ، وإنما لأنى لم اعد أشعر بالحاجة إلى زوجة ، أننى أشعر بالكمال فى داخلى ، وإذ اصبحت اعرف طبيعتى وأسيطر عليها لم أعد بحاجة إلى رفيق خارجى ، وهذا لا يعنى اننى لو كانت لى زوجة لاختلف سلوكى ، ربما تفهم من ذلك أن الداخل والخارج قد فقدا أى معنى بالنسبة لى ، وهذه هى الحالة التى أوجد عليها فى تجسدى الحالى .

هدأ ساتياكام ، واحنى رأسه إلى أسفل كالمهزوم وسأل فى ذلة :

— لماذا اذن تشجعنى على أن اتخذ لى زوجة مادامت امكانية الوصول إلى الكمال والمعرفة التامة تتوقف على أن أعرف طبيعتى بصفة مستقلة ؟

أجاب كابالاك فى رقة :

— إن رغباتك فى الوقت الحالى تختلف عن رغباتى ، ربما شعرت فى زمن مضى بنفس الحاجة إلى ما تشعر به حاليا ، وعلى الانسان أن يتبع الطريق الذى تمليه عليه متطلباته ولا يقلد غيره تقليدا آليا .

وعليك أيضا أن تضع فى ذهنك أن رسالة كل إنسان على هذه الأرض تخصه هو وحده ، وتختلف عن رسالة غيره ، وعلى أية حال ، اعتقد أنك محظوظ جدا ، يا ساتياكام ، لكونك لن تحتاج إلى جهد كبير فى حل مشكلة العلاقة بين الرجل والمرأة لأنك أنت وبهيرافى روحان متقدمان بالفعل ، وسوف تدهش مسرورا ذات يوم عندما تعرف أن الشىء الذى حيرك طويلا ، والذى أنزلك من الهيمالايا ، لم يكن فى حقيقته إغراء أو سقوط ، وإنما كان فى الحقيقة استكمالا لقدرتك على الفهم كى تغلق الثغرة فى قدرتك على فهم الإنسان عموما ، وإدراك حقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة .

أطلق ساتياكام تنهيدة عميقة ، ونظر إلى كابالاك فى شكر وامتنان ..

وفجأة ، هب كابالاك واقفا وسار بهدوء بعيدا عن النهر ، وأعقبه ساتياكام مترنحا .

وعندما اقتربا من الكوخ استدار كابالاك فجأة ، وقال : فى يوم اكتمال القمر الجديد ، عند منتصف الليل ، قابلنى فى نفس المكان على ضفة النهر

حيث كنا جالسين الآن ، لأعلمك المزيد من تعاليم التانترا .
قال ذلك ثم دخل كوخه وأغلق الباب وراءه وبدأ ساتياكام يفهمه فى ضوء جديد .

■ ■ ■

كانت مياه نهر الكانج تتدفق فى هدوء ، والظلام دامس بحيث لا يستطيع الإنسان أن يرى يده ، ووقف ساتياكام منتظرا تحت شجرة على ضفة النهر حيث التقى بكابالاك منذ خمسة أيام حين أنقذه من حيرته البائسة ، إنه الآن يشعر بكثير من الراحة ، وفجأة سمع وقع خطوات واقترب منه كابالاك ووضع شفتيه قرب أذنه ، وقال له هامسا :
— الليلة سوف أعلمك كيف تتغلب على الخوف من وجهة نظر تعاليم التانترا ، وكذلك الاتصال بالأرواح ، بعد قليل ستصل جثة امرأة طافية على النهر ، عليك أن تنزل إلى الماء فى بطء وتمسك بالجثة وتدفعها إلى الضفة ، وسوف أساعدك فى انتشالها .
سأل ساتياكام وهو يستشعر الخطر : ولكن كيف علمت أنها ستصل ؟!
وأخذ قلبه يدق بسرعة وقد فاضت به الرهبة .
قال كابالاك : ليس هذا أوان الشرح ، عليك أن تفعل ما أخبرك به .
وأحس ساتياكام أنه آلة لا إرادة لها
ظلت أوراق الشجر ساكنة بلا حراك ، وبدا لساتياكام أن الجو كله يوحى بالخوف ، وفجأة أعلن كابالاك : ها هى قادمة !
كان ساتياكام شجاعا بطبيعته ، ولم يشعر فى حياته بالخوف إلا نادرا ، ولكن هذه المرة كان الموقف أكبر مما يتحمل ، حقا لقد ظل طول عمره يعتقد أنه لا يخاف ، حتى أن كابالاك حين أخبره أنه سيعلمه عدم الخوف أخذ الأمر بخفة ، ولكنه الآن يرى أن كابالاك كان على حق ، وأن عليه أن يواجه ذاته الداخلية التى تستشعر الخوف
تردد ساتياكام قليلا ولكنه لم يستطع أن يعصى أمر كابالاك بالنزول إلى النهر ، كان الماء ضحلا يمكنه أن يسير فيه ولكن قدميه تغطسان فى الطين ، لم تكن المهمة مبهجة خاصة أنه تحت لعنة الخوف ، وأمسك بالجثة الطافية وأخذ يدفعها أمامه ، كانت رائحتها نتنة خانقة ، ولكنه تحامل على نفسه ،

ووصل بها إلى ضفة النهر ، وهناك انحنى كابالاك ، وأمسك بالجثة من ساقيها ، بينما كان ساتياكام يمسكها من كتفيها ، وخرج بها من الماء وجذباها معا إلى الضفة .

جلسا بهدوء بالقرب من الجثة الثاوية على الضفة ، لم يكن ساتياكام متعبا ، ولكنه يشعر بالدوار ، ولا يفهم شيئا مما يحدث ، وبعد قليل قطع كابالاك الصمت قائلا :

— علينا الآن أن ننقل الجثة إلى البستان القريب ونبدأ التدريب .

وقاما فى حذر فنقلا الجثة إلى حيث أشار كابالاك ، ولدهشة ساتياكام وجد مصباح زيت خافتا يشتعل فى البستان المظلم وإلى جواره صحن به بعض حبوب القمح وكوب به سائل ، ووسدا الجثة فوق الأرض ، كان جسدها الداكن يجعل من الصعب تحديد عمرها ، ولكن ربما كانت حول الثلاثين ، ومن المحتمل أن تكون الوفاة قد حدثت فى باكر ذلك اليوم .

ووقف ساتياكام جامدا كالصخر بينما كان كابلاك يتصرف كأنه يقوم بعمل معتاد لا يوحى بالخوف أو الدهشة أو الارتباك وقال لساتياكام :

— سوف أعلمك الآن .. فن التعامل مع الجثث بأساليب التانترا المناسبة التى تعيد الأرواح إلى الجثث الميتة ، كن حريصا على أن تتخلص من الخوف نهائيا ، لأنك إذا استسلمت للخوف فى أى وقت خلال الليل قد تضر بنفسك .

وصمت كابالاك قليلا ثم واصل حديثه قائلا : « عليك أن تخلع كل ملابسك ، وتجلس فوق الجثة الميتة فى وضع تأملى ، وسوف يحدث وأنت تكرر تلاوة طلاسم المانترا فى داخلك ، أن تفتح الجثة الميتة فمها ، ضع فيه قليلا من القمح وجرعة من النبيذ الذى فى الكوب ، وعندئذ سوف تغلق الجثة فمها ، وقد يحدث فى بعض الأوقات أن تلفظ الجثة بعض كلمات ، فعليك أن تجيب أو تسأل بأحسن ما تستطيع »

وصمت كابالاك قليلا ثم واصل : ساتياكام ، سوف تواجه أصواتا مزعجة وربما مناظر مخيفة ، ولكن تذكر : عليك ألا تخاف ، تدثر بشجاعتك ، تذكر دائما أنك معصوم بالقوة الكامنة فيك ، أن أية غلطة قد تسبب لك ضررا ، ولكن ، إذا خرجت من هذه التجربة بنجاح ، وهو ما لا أشك فيه ، سوف تكون شخصا مختلفا تماما فى الصباح .

صار ساتياكام شبه ميت ، واقترب منه كابالاك ، كان تجسيدا للشجاعة ، وساعدت الموجات المنبعثة منه ساتياكام بعض الشيء ، وتأكد ساتياكام أن ما يحدث حقيقة وليس حلما ، وواته بعض الشجاعة ، وبدأ ينضو عنه ثيابه ، ثم قرب كابالاك شفتيه من أذنه اليسرى ونطق طلسم المانترا ثلاث مرات ، وبعثت المانترا ثياراكهربيا فى جسده وزايله الخوف على الفور ، وأصبح نشيطا مستعدا للقيام بما كلف به ، واتخذ جلسته فوق الجثة فى مواجهة الرأس ضاما راحتيه على صدره ، وانحنى لكابالاك ثم خفض يديه وأراحهما على ركبتيه ، وعندئذ تقدم كابالاك ولمس بأصبعه ما بين حاجبيه ، وعندما أغلق ساتياكام عينيه انصرف كابالاك بهدوء حتى اختفى فى الظلام .

■ ■ ■

لم يكد ينقضى الهزيع الأول من الليل حتى أحس ساتياكام بحركة خفيفة فى الجثة من تحته ، ففتح عينيه .. رأى فم الجثة يتحرك كما لو كان يريد أن يطلب شيئا ، فوضع فيه بعض القمح والنبيذ ، وأغلق الفم مرة أخرى ، فى نفس الوقت كان يكرر صيغ المانترا ، واستمر على هذا النحر حتى انقضى الهزيع الثانى من الليل

وفجأة انطلقت صرخات حادة وصيحات متوحشة من كل الجهات ، حاول ساتياكام فى أول الأمر أن يبقى ساكنا يكرر المانترا ، ولكن الضجة النابحة والتحديات المهددة أصبحت كالكابوس الذى يجثم على صدره ، لم يعد فى امكانه أن يبقى عيونه مغلقة ، وكان ما رآه فى اللحظات الأولى بعد أن فتح عينيه كافيا لأن يجمد الدم فى عروقه .

رأى مخلوقات متوحشة بشعة تستعد لمهاجمته والاجهاز عليه ، كانت هذه المخلوقات تبدو مخيفة شيطانية ، ولكن بمجرد أن تذكر ساتياكام كلمات كابالاك له : « تشبث بالقوة الكامنة فيك » اختفى خوفه ثم استجمع شجاعته ، وأغلق عينيه ، وواصل قراءة المانترا ..

استمرت الأصوات المزعجة والمناظر الجهنمية بعض الوقت ، ولكنها لم تعد تزعجه ، ثم أخذت تخفت حثيثا حتى صمتت تماما ، وكان الهزيع الثالث من الليل قد انقضى .

ساد الهدوء مرة أخرى ، وأحس ساتياكام ، فى أعماق المانترا التى يرددها ، بليل القمر الجديد ، هادئا .. حرا .. ولكن شيئا آخر لفت انتباهه كما حدث من قبل ، كان هذا الشيء أشبه بعويل ينطلق من الجثة كما لو كانت تشعر بالألم ، وتحركت الجثة حركة خفيفة ، ولكن ساتياكام حافظ على جلسته ، واستمر العويل المزعج يعلو ويعلو ، فانفجر ساتياكام صائحا بلا إرادة منه : « من أنت ؟ »

وسمع صوتا ضعيفا مرتعشا يقول « خ .. ل .. ص .. ن .. ى » فانزعج ساتياكام برهة ، ولكنه لم يلبث أن استجمع رباطة جأشه وسأل ثانية « من أنت ؟ »

تحدث نفس الصوت قائلا : « أنا .. شبحك » ! ثم صمتت الجثة وعادت بلا حراك كما كانت .

ظل ساتياكام برهة يترقب ما إذا كان سيحدث شيء أخر ، ولما لم يحدث أى جديد وحتى فم الجثة ظل مغلقا ، أغلق عينيه وركز مرة أخرى فى المانترا ، وشعر فى داخله بتعاطف كبير تجاه الأرواح ، إزاء الجثة والوجوه الشيطانية التى شاهدها فى أول الليل ، وملأ الطهر الصافى قلبه وأحس بسلام لم يستشعره من قبل وتفتح محبة وشكرا للقوة التى مكنته من الصمود .

ومضى الهزيع الأخير من الليل فى سلام ، وأحس ساتياكام بالخلاص ، وذاب فى صمت عميق .

■ ■ ■

مع أشعة الفجر الأولى ، شعر ساتياكام كأن جرسا مقدسا يوقظه ، ففتح عينيه ، ورأى كابالاك واقفا إلى جواره وهو يبتسم ابتسامة عريضة والرضا يملأ وجهه .

قال كابالاك :

— قم الآن . وعلينا أن نتعاون لإلقاء الجثة فى النهر .

ورفع الاثنان الجثة باحترام بالغ ، كأنها شيء مقدس ، وحملاها إلى نهر الكانج ، والقياها برقة ، لتطفو فوق المياه ، وظلا برهة واقفين ينظران إلى

الجثة الطافية كما لو كانت إحدى قريباتهما إلى أن اختفت ، وعندئذ التفت كابالاك إلى ساتياكام وقال :

— عليك الآن أن تغتسل فى النهر قبل أن ترتدى ثيابك وتأتى إلى كوخى .

كانت الأشعة الأولى لشمس الصباح تسقط على الأرض عندما دخل ساتياكام كوخ كابالاك ، بدا العالم فى ناظريه مختلفا تماما فى ذلك اليوم ، ولم يكن بوسعه أن يقتنع بأنه نفس الشخص الذى كان بالأمس . زاوله أى أثر من الشخص القديم وشعر أنه انتقل إلى بعد جديد يستطيع فيه أن يرى الأشياء بالعين الثالثة .

لم تكن لديه أية أسئلة محددة يوجهها إلى كابالاك الذى بدا له أيضا مختلفا تماما عما كان عليه من قبل ، وعاودته على الفور ذكرى أستاذه فى الهيمالايا وازداد فهما له ، وظل فترة غائبا فى ذكراه المحببة .

— إنك لم تقم بعمل عظيم فحسب فى الليلة الماضية ، وإنما فعلت أيضا خيرا كبيرا . يا ساتياكام .

نظر ساتياكام مستفهما إلى كابالاك بينما استمر هذا قائلا :

— إنك لم تتخلص فحسب من الخوف ، وإنما ساعدت أيضا فى خلاص روحها .. كثيرون ممن يزاولون التانترا يستدعون الروح للعودة إلى الجسد الميت ، ثم يوظفونها فى أطماعهم الأنانية وأغراضهم الشريرة ، وتحت قوة الطلسم لا تستطيع الأرواح سوى أن تطيع أوامر التانترا فتقوم بأعمال الانتقام وغيرها من الأعمال المخيفة السوداء ، وعندما تسقط الروح فى الأسر على هذا النحو ، يبدأ من يزاول التانترا ينحط ويتضاءل حتى يصل إلى نهاية مفجعة ، وبسبب سوء استخدام قوة التانترا على هذا النحو أصبحت سيئة السمعة ، أما إذا مورست بالحق فإنها لا تؤدى إلى تحقيق الأغراض الأرضية فحسب وإنما تحقق الخلاص .

ولأنك لم تكن لديك أغراض أنانية ، ولا تسعى للحصول على القوة ، استطعت أن تتخلص من الخوف ، وفى نفس الوقت تحقق بعض رغبات تلك النفس ، وبقوة التانترا استطعت أن توجه روح تلك المرأة الميتة إلى مراتب أعلى بدون علم منك ، وكان هذا واضحا فى توسلها لك أن تخلصها .. لا من

جسدها وإنما من ذاتها الدنيا ، ولأنك استجبت لذلك بإخلاص وبدون أنانية .. استطعت أيضا أن تحقق الخلاص لنفسك ، وهذا ما أدى إلى تطوير شخصيتك

سادت فترة من الصمت ، ثم سأل ساتياكام فى هدوء :

— إنك قلت أننى وجهت روحها دون علم منى إلى مراتب أعلى .. هل يمكنك أن تلقى مزيدا من الضوء على ذلك ؟

حرك كابالاك الجمر المشتعل فتطايرت منه مئات الشرارات ، ثم نفخ فى الفحم فأشعل فيه اللهب ، واعتدل فى جلسته ، وأجاب :

— إن المانترا التى علمتها لك هى بذرة التانترا ، إنها تحوى امكانية النظرية الكاملة ، وبتكرارها تطلق موجات فى المخ تولد الطاقة التى يمكن استخدامها فى تحقيق الرغبات ، ولأنك خير وطيب القلب بطبيعتك استجبت لا شعوريا إلى طلب النفس وجعلت قوة المانترا تخلصها ، هذا ما حدث ببساطة ، وتذكر أن أى أستاذ مهما يكن ماهرا لا يستطيع أن يساعد التلميذ ما لم يساعد التلميذ نفسه بإرادته وجهوده ، إنك إذا كنت تابعا أعمى ما استطعت أن تحقق كل ذلك ، إن واجب الباحث عن الحق ألا يردد آليا الأساليب المختلفة ، وإنما أن يحقق ذاته ، والتحول النفسى الصحيح لا يحدث إلا إذا تخلص المرء من النزعة الأنانية .

سأل ساتياكام :

— ماذا تعنى بقولك إن المانترا تحوى كل امكانية النظرية ؟

— إن النظرية قد تحوى مئات الحكم والأقوال المأثورة ، وهذه من الممكن تركيزها فى بعض المقاطع الشعرية التى يمكن اختصارها بدورها فى عبارات قليلة ، وهذه أيضا يمكن تركيزها فى بذور المانترا فتصبح حاوية لكل قوة النظرية

عاد ساتياكام يسأل :

— هل يمكنك أن تخبرنى كيف علمت باليوم والوقت المحدد الذى تصل فيه الجثة الطافية ؟

— عندما يتقدم مزاول التانترا فى فنه ويعرف علم الزمن ، يستطيع أن يتنبأ بالميلاد والموت بما فى ذلك الوقت والحالة التى توجد عليها الجثة الميتة ،

وفى ذلك اليوم عندما كنت أتحدث معك على ضفة نهر الكانج كان فى امكانى أن أرى بوضوح الجثة الطافية فى نفس المكان واليوم والزمن التى ذكرتها لك ، بعد قليل من الوقت لن يكون من العسير عليك أن تعرف كل ذلك .

وظلا يوما بعد يوم يلتقيان فى كوخ كابالاك أو فى كوخ الأجمة حيث كان ساتياكام يزاول النادا يوجا ، وكان كابالاك يزاول أساليب التانترا بما فيها تنشيط الطاقة فى أساس العمود الفقرى ، ويتوقف بين الحين والآخر للدخول فى مناقشات عميقة حول مسائل صوفية مبهمة .

ولكن ذلك ، على أى حال ، لم يؤد بساتياكام إلى الامتناع عن زيارة بهيراڤى أو تقليل زياراته لها ، بل على العكس أصبحت بهيراڤى بالنسبة له مفهومة أكثر وذات معنى أوضح ، وكثيرا ما كان يخبرها عما يفعل ، أما هى فتبتسم ببساطة بطريقة متفهمة .

وذات مرة ، بينما كان ساتياكام يحكى لها عن آخر الأساليب التى تعلمها ، فتحت فمها لتتحدث لأول مرة عن ماضيها قائلة « أن أستاذتى ، التى نسميها ماتاچى[1] علمتنى هذه الأساليب أيضا ، وكثيرا غيرها

بدت الدهشة على ساتياكام وهو يسأل :

— أين كانت أستاذتك هذه ؟

— فى فينداياشال بالقرب من بنارس ، لقد عشت مع ماتاچى أربع سنوات ، وبعدها أرسلتنى إلى هنا لانتهى من رغباتى (الكارما)

— هنا ؟

أجابت بهيراڤى فى أدب :

— معك

— هل كنت تعلمين ذلك عندما شاهدتنى لأول مرة أقف فى الصف لرؤيتك ؟

— ليس على الفور ، ولكن الأمر لم يستغرق وقتا طويلا حتى تعرفت عليك فى الصف .

وساد الهدوء ملامح وجهها ، أما ساتياكام فأحنى رأسه وغاص فى فكر

---

(١) ماتاچى : الأم الفاضلة .

عميق ، بينما استمرت بهيرافى تقول بنفس الحالة المسالمة : فى لحظة الفراق قالت لى ماتاچى : عليك أن تشقى طريقك بنفسك .. أنت بنفسك الطريق ، وباركتنى .

ولم يتمالك ساتياكام نفسه أن يسأل :

— احكى لى أكثر عن أستاذتك ، أعنى ما هى العلاقة التى كانت تربطك بها ؟

— لم تكن ما تاچى أستاذتى فحسب وإنما أيضا أمى المقدسة ، لم يكن يطوف بخلدى أن أتركها إطلاقا ما لم تطلب هى ذلك ، لم أكن أتصور أن أعيش بدونها !

وتوقفت بهيرافى لحظة ثم أكملت : لم يكن فى ا ستطاعتى أن أتصور أما مقدسة غيرها ، لقد كانت تجسيدا للحلاوة والجمال والقوة ، ما أبدع ما كان يشع من جسدها من سحر ومحبة طول الوقت !

وظهرت الدموع فى عينى بهيرافى ، ونكست رأسها

وسألها ساتياكام فى شفقة :

— هل تشعرين بالوحشة نحوها ؟

— إنها ليست بالبعيدة عنى !

واستطاع ساتياكام أن يشعر بوجود ماتاچى معهما بعد أن قالت بهيرافى هذه الكلمات ، وظل الاثنان صامتين بعض الوقت .

ثم تحدثت بهيرافى مرة أخرى :

— إن ماتاچى تجسيد لدورجا ، أو على الأقل هذا ما نعتقده ، عندما كانت تأتى إلى الهيكل وتجلس على المنصة لم يكن فى استطاعتنا أن ننظر مباشرة إلى وجهها ، يا لها من قوة هائلة وإشعاع ! ما اكثر ما كان بها من قوة التانترا ! كان جمالها وكمالها يفوقان الوصف .

[٣]

أحلام داخل أحلام

« الخريف »

وبدأت الاشجار
تغير ألوانها

الزيجات ، كما يقال ، تعقد فى السماء ، ويصبح من الحتمى تنفيذها على الأرض ..

ذات يوم بهيج عقد قران ساتيا كام وبهيرافى طبقا لمراسم التانترا تحت اشراف كابالاك شخصياً ، حضر الحفل مئات من الناس أخذوا يتوافدون طيلة اليوم فى طوابير تتلوها طوابير تدخل وتخرج من ساحة المعبد ، وملأت سحب الغبار الجو بينما كانت الموسيقى تصدح بالاهازيج لشيفا وكالى ، وكانت اجراس المعبد تدق بلا توقف تحية للداخلين الى أرجائه ، بينما كان ساتياكام وبهيرافى يشعان بالفرح الذى لايوصف ، وهالات القداسة تنبعث من جسديهما ، وكانا يحييان بايماءات صامته الناس الذين يتوافدون من القرى المجاورة ، وقال الكثيرون انهما تجسيد لشيفا ودورجا .

وعندما انتهى الاحتفال اندفع الناس يلمسون أقدامهما ، وكان الزحام شديدا لدرجة لايتبين فيه صوت ، وتقبل الزوجان تحيتهم فى صبر ، ثم قام ساتياكام وبهيرافى واتجها الى المذبح ، وانحنيا معا أمام صورة كالى ، وعندما استقاما .. اقترب منهما كابالاك فانحنيا ومسا قدميه ، وكان هذا أول ظهور لكابالاك أمام جمهور كبير من الناس

سأل كابالاك فى مرح :

ـ ماهو شعورك فى هذا الجو الصاخب ؟

أجاب ساتياكام بابتسامة عريضة :

ـ هذا هو الجو الذى أحبه

قال كابالاك معقباً :

ـ عليك أن تُعلِّم الحكمة كما تَعَلَّمتَها من الحكماء القدامى وتودعها فى قلوب الناس .

ومضى المتطوعون يوزعون الأغذية المحفوظة على الزائرين ، ثم أخذ الناس ينصرفون تدريجيا الى بيوتهم .

اقبل الغسق ، وخلا المكان إلا من عدد قليل من أقربّ المقربين ، وساد الهدوء مرة أخرى ساحة المعبد

لم تكن قصة ساتياكام وبيهراف تختلف عن قصة أى زوجين آخرين ، لولا ما عرف عنهما من تقدم روحى لامثيل له ، وقد تأكد هذا الاختلاف فى تفوق ساتياكام فى اساليب التانترا التى تشاركه فيها بهيراف المتقدمة .

كانت المتطلبات الجسدية المطلوبة فى الزوجين المثاليين ، طبقا لما تقرره التانترا ، تنطبق عليهما تماما ، فكلاهما فى صحة جيدة ، وهو تبدو عليه الرجولة مثلما يبدو عليها الجمال والانوثة .. خصر نحيل ، وصدر ممتلىء ، وبشرة ناعمة ، وعينان كزهرتى اللوتس .

واحتلا ركن الكاهن فى ساحة المعبد الهادئة ، البعيدة عن الضوضاء والتلوث ، ولأن مشاعرهما وأفعالهما على انسجام تام ، لذا بدا سلوكهما مثاليا ، وكانت بهيراف المخلصة تلعب دور الطاقة المقدسة بالنسبة لساتياكام وأصبحت المنبع الازلى للسرور له .

وكان الناس ينادونهما « ماهاراج » و « ديفى » ، وكانت ديفى تتابع متطلبات العبادة فى المعبد بعناية فائقة ، وماهاراج يعقد جلسات دينية يومية كل مساء ، وغالبا مايتحدث فيها عن الاخلاص للأم المقدسة ، واحيانا كانت تصل الى المعبد فرق فى المغنين يحيون الليالى الدينية ، وكانت هذه أول مرة فى تاريخ المعبد يشهد هذا النشاط .

بعد مرور عامين ، ولد لهما ابن اسمياه روهيت ، وتوافد الكثيرون من المخلصين لتقديم الهدايا فى الحفل الخاص الذى أقيم بهذه المناسبة .. كان روهيت طفلا بنى اللون ، صحيح البدن ، وأخذ ينمو سعيدا فى هذا الجو الملىء بالحب والطاقة والتوافق ، وعندما بلغ نحو العامين من العمر ولد له أخ ثان ، ومرة أخرى أقيم احتفال كبير واسمى الطفل بوران .

كان بوران ذا بشرة فاتحة رقيقة اكثر من روهيت تحيط به هالة من النور ، ويبدو اكثر من أخيه حلاوة وهدوءا وذكاء ، ونما الطفلان معاً جنبا الى جنب تحيط بهما العناية والرعاية ..

كان روهيت اكثر شبها بأمه وشديد التعلق بها ، بينما بوران يشبه أباه ، وعاشت الاسرة المباركة فى سرور وسلام وخير وفير ، وكبر بوران وتخطى عامه الأول .

ولكن الطبيعة متغيرة ، والامور لاتثبت على حال . بعد ظهيرة أحد أيام الخريف استيقظت ديفى من اغفاءة قصيرة لتكتشف أن روهيت غير موجود ، فأخذت تبحث عنه هنا وهناك دون اهتمام فى أول الأمر ، ثم ما لبثت ان افترسها القلق ، وبينما هى تواصل البحث .. دخلت الخادمة تهرول وتصيح قائلة « ديفى .. روهيت غرق فى البحيرة ! » ذهلت ديفى وجرت الى بحيرة المعبد وفى اعقابها الخادمة وهى تواصل الصياح : « نزلت فى البحيرة لأستحم وغصت تحت الماء فارتطمت قدمى بشىء ، فانجنيت ألمسه فأمسكت يداى ، بالطفل ، وأخرجته .. وظلت تهذى حول ذلك وأنفاسها تتقطع لاهثة .

وعندما وصلنا الى البحيرة وجدنا جثة روهيت مسجاة بالقرب من حافة الماء .. امتلأت عينا ديفى بالدموع الصامتة وهى تنهار على الأرض ككتلة من اللحم ، أخذت رأس روهيت ووسدتها بحنان فوق فخذها ، وبعد قليل وصل ماهاراج تصحبه جماعة من الناس مسرعين بعد أن انتشر الخبر ، وانفجرت ديفى فى نحيب حاد كالخزان المتفجر وهوت على قدمى ماهاراج ، وأخذت ترجوه والدموع تطفر من عينيها : « أعد اليه الحياة .. من فضلك .. اننى أعرف ان فى مقدورك اعادة الروح الى الجسد الميت . »

كانت ديفى منهارة على نحو لم تشاهد عليه من قبل ، وكانت الدموع تملأ عيون الجميع ، وبعض الناس ينتحبون فى صوت عال واتجهت كل الوجوه الى ماهاراج بعيون متطلعة .

جلس ماهاراج بهدوء الى جانب ديفى ، ومس جبهة روهيت وقال فى صوت خفيض ، « ماكان مقدراً قد كان ، لا جدوى من معارضة الارادة المقدسة التى تعرف على نحو افضل » .. هدأت ديفى فجأة برهة من الوقت ثم قالت بصوت عميق يثقله الحزن : « ألن تنقذه ،ياسيدى ؟ »

- فى امكانى أن أفعل لوشاءت الارادة ذلك .

قالها ساتيكام وأحنى رأسه وظل ساكتا ، ثم رفع يده من فوق جبهة روهيت ، ووضعها على كتف ديفى وواصل كلامه : « هذا امتحان لنا وفرصة لنختبر بعض المشاعر الانسانية ، إن من الاسباب التى أرسلتك ماتاجى الى هنا أن تدركى بعض المشاعر « بالتجربة » لا « بالتصور » .

نظرت ديفى الى روهيت ، وقفزت فى قلبها طفرة من الالم ، قالت وهى تنظر الى ما هاراج كالغزال المحتضر · « ألا تشعر بأى حزن أو خسارة ؟ » كانت كلماتها يغلفها الحسد الحزين .

أجاب ماهراج :

ـ الموت مثل الميلاد تماما .. الاثنان وجهان لظاهرة واحدة .. بدون الميلاد لا يكون موت ، والعكس صحيح ، والفترة الزمنية بين الميلاد والموت هى مجرد شذرة صغيرة من الحياة الكلية .. التى لاتضيع ولاتموت .

« لقد كان روهيت فى مكان أخر قبل أن يأتى الينا ، ولابد انهم افتقدوه قبل أن يأتى الى هنا ، لذا نحن أيضا يجب أن نفقده قبل أن يحصل عليه آخرون فى رحلته الممتدة الى الكمال .. من نكون نحن حتى نتدخل فى حياة روح ؟ »

وبعد أن تمت المراسم والاحتفالات المناسبة فى المنزل حملوا جثة روهيت للدفن على شاطىء الجانج ، واستدعى الكاهن للقيام بالمراسم الاخيرة ، ثم أدليت الجثة فى الحفرة وأعيد ردمها بالتراب ، وقام البعض بجلب الماء من النهر ورشوه فوق القبر ، وكان الجميع صامتين .

وفى طريق العودة تساءل واحد : « كيف غرق الصبى ؟ » فردت امرأة : « كان يلعب بالقرب من البحيرة ولا أحد يعرف كيف انزلق فى الماء » وقال أخر : « يا له من مسكين ! انه القدر ! » وساد صمت ثقيل مرة أخرى .

وعندما دخلا المنزل كانت ديفى اكثر تماسكا ، ونظرت الى ماهاراج وقالت له فى حدة : « أنت فى غاية القسوة ! » فأجاب بابتسامة جافة : « ان هدوء الحكمة وقسوة الصخر يتشابهان من الخارج ، ولكن ما أكبر الخلاف بينهما ! أنت تفهمين ذلك » ..

وفى تلك الليلة لم تستطع بهيرافى أن يغمض لها جفن ، وكان بوران يغط فى نوم عميق الى جانبها ، وظلت تتقلب فى سريرها عدة مرات ثم قامت وذهبت الى سرير ساتياكام وهمست : « هل أنت متيقظ ؟ »

كان ساتياكام مستلقيا على ظهره فى وضع مريح فاعتدل جالسا فى هدوء ، وسألها « ألم تستطيعى النوم ؟ »

ـ اننى لست حزينة بائسة كما كنت ، ولكن من الصعب أن أنسى روهيت ،

آمل عندما يأتى الصباح أن اكون أحسن حالا ، ببركة ماتاجى ،
وضع ساتياكام ذراعه اليمنى فوق كتفها اليسرى ليهدئها ، وواصلت هى : « هل يمكننى أن أسألك سؤالا ؟ » ودلها صمته على موافقته فمضت قائلة :

ـ هل كنت تعلم أن روهيت سيلقى هذه الميته ؟ ألم يكن فى مقدورك أن تمنعها ؟

أجاب ساتياكام :

ـ نعم كنت أعلم مصيره ، وكان فى امكانى أن أمنعه ، ولكن الارادة المقدسة لم تشأ ، لقد دبرت الأمر كله من أجل إن تحررك من الارتباط ، أن ذلك يذكرنى بما فعله كابالاك معى ليدربنى على التحرر من الخوف ، رغم انى كنت فى ذلك الوقت اشعر اننى لست فى حاجة لذلك ، وان قلبى لايعرف الخوف ولكن عندما خضت التجربة المخيفة فى تلك الليلة ، عرفت أن هناك فرقا بين أن « يعرف » الانسان شيئا ، وأن « يتحقق » منه ، وفى الصباح التالى كان فى امكانى أن « أرى » بوضوح كيف زايلنى شبح الخوف »

وندت عنه تنهيدة عميقة ، وواصل فى نبرة عميقة واضحة : « عندما جئت الى هذا المكان أول مرة وتعود الناس أن يقفوا صفوفا لرؤيتك ، من كان يتصور انك من الممكن أن تتعلقى بأى شىء ! ربما كنت ترفضين هذه الفكرة من أساسها ، وربما كانت لاتدور بخلدى أنا أيضا ، ولكن يمكنك أن ترى بسهولة الآن ، على الأقل لفترة ما ، ان من العسير عليك أن تتجنبى أن تكونى أما ، وهذا اختبار لايدل فحسب على نقص فيك ، وإنما يساعدك أيضا على الخلاص من هذا النقص ، وهذا من الأسباب التى دعت ماتاجى الى إرسالك الى هنا ، ان ارتباط الأم بابنائها هو أقوى ارتباط يمكنها أن تتخلص منه ، وهذه هى العقبة الكبرى التى كانت تعترض طريقك ،

سألت بهيراف :

ـ ولكن ما الذى يضمن بعد هذه التجربة الوحيدة أن أتخلص من الارتباط فى المستقبل ، خاصة ان لدى بوران اعتنى به !

اقترب منها ساتياكام وأجاب فى نبرة تقطر حبا :

ـ بما انك روح متقدمة على الدرب فعلا ، تكفى هذه التجربة لتخليصك من

الارتباط الأرضى ، كما أن هذه ليست حياتك الأولى التى تجربين فيها الارتباط ، بل انك فى مجموعة من الحيوات السابقة كانت لك مختلف التجارب المماثلة ، وفى ميلادك الأخير كدت تتخلصين من الارتباط لولا أن حال شىء دون ذلك ، ولذا فان موت روهيت الآن يعطى اللمسات الأخيرة فى انهاء هذا الارتباط !!

وتوقف قليلا ، وأكمل : « ان ثمن التطور الى مرحلة الانسان المثالى هو التخلص من بعض القيم الانسانية القائمة ، سواء كانت محبوبة أو غير محبوبة ..

« ان بوران لن يشدك الى أسفل ، بل على العكس .. »

وتحكم ساتياكام فى نفسه ثم اكمل .. ولكن ذلك سيظهر فى وقت ما فى المستقبل ..

وترددت بهيراڤى برهة قبل أن تسأل فى أدب ..

ـ وماذا كان السبب فى مجيئك أنت الى هنا ؟

أجاب ساتياكام :

ـ أنت ، كى تعلمينى حقيقة الحياة وإكمال مهمتها .. إن الأم المقدسة فيك هى ربتى المعبودة وهى مصدر طاقتى .

مرغت بهيراڤى رأسها فى هدوء على قدميه ثم عادت الى سريرها .

فى صباح اليوم التالى وصلت شراذم من الناس مبكرين لتقديم مواساتهم لما هاراج وديفى بعد أن سمعوا بنبأ وفاة الطفل ، كان معظمهم يبدو عليهم الحزن والقلق ، ولكن بعض الناس خارج المنزل اخذوا يتناقشون فى روح من الشك قالوا : هل يمكن أن تحدث هذه المأساة للأرواح العظيمة أيضا ؟ ما الفرق اذن بينهم وبيننا نحن الناس البسطاء ؟ ألم يكن فى امكانهما أن ينقذا طفلهما ؟

وآخرون انتهجوا أسلوب الوعاظ : سواء كان الناس خاطئين أو فاضلين ، فإنهم يخضعون للمقدر والمكتوب ، والجميع يموتون .. العاديون والقديسون والانبياء ، هذا هو قانون الطبيعة ، فماذا بعد ذلك ؟

واستمرت المناقشات على هذا النحو الى أن قال أحدهم « ولكنى سمعت ، ولا أعرف كيف ، انه مالم يكن الانسان خاطئا فإنه لايفقد أطفاله قبله » فرد

آخر بسرعة وقد كاد يعتل صبره : « إننا نعيش فى العصر الحديدى ياسيدى وما تقوله كان صادقا فحسب فى العصر الذهبى »

واستمرت المناقشة ، وكان يبدو عليهم انهم أصبحوا اكثر حكمة بعد هذه التجربة وان كانت على حساب غيرهم ، بينما اكتفى آخرون بالصمت وذرف الدموع .

وبعد شيء من الوقت خرج ، ماهاراج وديفى لتحية المعزين ، وكانا يبدوان رابطى الجأش ، ولكن قليلين من الحاضرين كان فى امكانهم أن يفهموا ما يعتمل فى نفسيهما .

■ ■ ■

تعاقبت الأيام والشهور ، وعادت بهيرافى الى مزاولة واجباتها فى المعبد كالمعتاد ، تضاءل المها بفقدان روهيت ، وكانت مثالا للاخلاص والفرح والقوة ، فتزايد انجذاب الناس اليها ، فكانوا يجلسون بالساعات لرؤيتها . أما جلسات الدروس التى يعقدها ساتياكام فكانت تمتلىء كل يوم بالناس اكثر واكثر ، وغصت ساحة المعبد فى الامسيات بالناس من كل مشارب الحياة ، أما ماهاراج فكان يبدو صورة مجسدة للصفاء والحب والتعاطف .

وغالبا ماكان ماهاراج يواجه فى جلسات الدروس اسئلة تتراوح ما بين المسائل الروحية والاجتماعية الى المشاكل السياسية ، ولكن مهما كان السؤال .. كان ماهاراج ينقله الى المستوى الروحى بلمساته الاستاذية ، وكان الناس يسمعون اليه فى انصات .

ذات يوم ، كما كان يحدث دائما ، سأله شخص تبدو عليه النزعة اليسارية هذا السؤال :

ـ أليس من الظلم أن نحاضر عن الله بين آلاف لايقلقهم سوى الحصول على احتياجاتهم الجسدية الاساسية ؟

أجاب ما هاراج :

ـ بالتأكيد أن الذين تشغلهم مشكلة الحصول على الغذاء لايمكنهم تذكر الله كثيرا ، من الواجب أن يوفر لهم الطعام وفرص العمل ، ولكن لاينبغى اتخاذ هذه الفلسفة كعذر للقادرين على اشباع ضروراتهم الاساسية ، ان تطور الانسان ، فرديا وجماعيا ، ليس نمطيا فى كل حالة ، وعليه فإن على

الجميع ذكورا واناثا ان يطوروا أنفسهم طبقا لظروفهم ، وعلى ذلك يكون السؤال هو : من يخدم من ، وبأى طريقه ؟ وهذا يحدده القانون الخاص بالامزجة والقدرات ، وكل مصلح أو واعظ أو زعيم لديه وسيلته الخاصة فى العمل طبقا لميوله ورسالته ..

العامل المشترك الوحيد الذى يجب توافره هو عدم الانانية ، فاذا كان الانسان مخلصا وغير أنانى يكون قادرا على تقديم المعونة الحقة ، وبذا يحصل الناس على الفائدة المرجوه ، لذا فليست هناك ضرورة أمام الانسان لتغيير واجباته التى اختارها لنفسه ، والتى قد تكون قد اختيرت طبقا لمزاجه الخاص .

سأل أحد الموجودين :

ـ الا تعتقد ، ياما هاراج ، انه لو دخل ميدان السياسة رجال مثلك ، فإن السياسة سوف تنصلح ويحصل الناس على مطلبهم من العدل والرخاء ؟

خفض ساتياكام رأسه قليلا ، وأجاب بتواضع :

ـ ربما كان معك بعض الحق ، ولكن طبقا للنواميس الروحية ينبغى على الرجال المقدسين ان يرشدوا الناس ويساعدوا القطاعات الأخرى من المجتمع دون أن يتورطوا مباشرة فى السياسة ، وهذا شرط ضرورى حتى تبقى الروحانيات فوق مستوى الفساد والانتهازية والطمع ، ولكى تظل مستودعا للقوى اللا أنانية ، وبهذه الطريقة أيضا يستطيع الناس تحقيق مصائرهم ، وزيادة فهمهم والوصول الى مستوى النضج الذى يمكنهم من حمل مسئولياتهم .

وحتى يستفيد الناس استفادة كاملة من هذا المستودع ، ينبغى عليهم أن ينصتوا للحكماء المقدسين ويتبعوهم دون أن يتوقعوا منهم أن يفعلوا كل شىء من أجلهم ، فليست هناك اذن حاجة لأن يتحول الرجال المقدسون الى سياسيين ، ولكن عليهم أن يقودوا السياسيين والزعماء فى مختلف الميادين ويساعدوهم على تطهير دوافعهم ، وهذا لايمكن تحقيقه بدون المشاركة النشطة من هؤلاء الزعماء ، أو بمعنى آخر .. ان المزج بين الروحانيات ومختلف أوجه المجتمع الانسانى لايمكن تحقيقه الا بالتعاون الصادق بين الزعماء والناس .

ولكن هناك حالات خاصة فى التاريخ الانسانى سادت فيها الانانية وفشل المصلحون الاجتماعيون والسياسيون ومختلف الزعماء فى تحقيق اغراضهم ، وعندئذ تتدخل الارادة الالهية بإرادتها فى هذه الميادين ـ كما فى حالة كريشنا وموسى وبوذا والمسيح ومحمد ـ لتنقية الاجواء واعادة الفضيلة ، فالقرار فى مثل هذه الحالات يكون صادرا من الارادة العليا ، ولكنه يعتمد أيضا على تلبية الناس واستعدادهم ..

وحدث ذات يوم بعد ليلة مطيرة أن توافد الناس على ساحة المعبد ، والأرض لاتزال مبتلة للاستماع الى الدرس المسائى ، وفى ذلك اليوم بدا ساتياكام اكثر رقة وظرفا من المعتاد ، ولكنه قوى كما هو دائما .

وكانت الأرض مليئة بالاغصان وأوراق الشجر المبعثرة نتيجة للعاصفة القوية فى الليلة السابقة ، ودعا ساتياكام الناس الى جمع المخلفات وتنظيف الأرض ، فاندفع البعض منهم لتنفيذ ذلك على الفور ، وتقاعس آخرون .

وسرعان ماصارت الساحة نظيفة ، ولكنها مبتلة بعض الشيء ، ولم يبال كثيرون بالجلوس فوق البلل .

وفى ذلك اليوم حضر لسماع ماهاراج لأول مرة مجموعة من الطلبة المثقفين ، كانوا قد انتحوا جانبا ريثما قام الأخرون بتنظيف الأرض ، ثم تقدموا واحتلوا مكانهم على المنصة حيث يجلس ساتياكام ، وجلسوا فى مواجهة الجمهور ، كانت تبدو عليهم الغلظة وعدم التجربة .

وسأل واحد منهم فجأة :

ـ مافائدة مثل هذا العمل ؟ أقصد تنظيف ساحة المعبد بواسطة المؤمنين ، أما كان من الأجدر أن يقوم الخدم بهذا العمل ؟

وشابت صوته لهجة من الغطرسة .

أجاب ساتياكام بصوته الخفيض المعتاد :

ـ أن العمل الذى لايتسم بالانانية يطهر القلب ، وبدون قلب طاهر تصير المعرفة فارغة ومتغطرسة ، ان بذرة الشر لايمكن أن تنتزع الا اذا توافر التواضع والاخلاص ، والقلب غير الطاهر لا يمكن أن يعرف الاخلاص .

سأل طالب آخر :

ـ ماهو الشر ، ياما هاراج ؟

أجاب ساتياكام :

ـ الشر حالة عارضة لأنه يعارض الطبيعة الحقيقية للاشياء .. انه مبدأ الموت بينما الخير مبدأ الحياة .

استفهم طالب مثقف آخر :

ـ « هل الشر حقيقي ؟ »

ـ الشر حقيقي وغير حقيقي في نفس الوقت ، انه حقيقي الى حد انه يتطلب جهدا لتغيير طبيعته ، ولكنه غير حقيقي بمعنى ان من الممكن تحويله الى الخير ..

قال آخر معلقا :

ـ « ولكنه أحيانا ما يكون من المؤلم للغاية فعل ذلك » !

ـ نعم ، ان ماهو خير وماهو سار ليسا متفقين دائما ، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يختار الانسان الخير دائما . فإن ما هو سار اذا كان مناقضا للخير يفقد هدفه ..

ـ ماهو الهدف ياسيدي ؟

أجاب ساتياكام بثقة :

ـ « تحقيق الروح »

صاحت سيدة بين الجمع في ألم

ـ « اذن لماذا يمتلىء طريق التفوق الروحي بالتجارب المؤلمة والامتحانات ؟ »

نظرا ساتياكام الى المرأة بغاية التعاطف وأجاب :

ـ « ان تحقيق التفوق الروحي يتطلب تقدما غير منقطع . ولا يمكن ازالة المعاناة والألم طالما خضعت الحياة الروحية للظروف البشرية . وما لم يهب الانسان نفسه بالكامل للادارة العليا ، لايمكن أن ينقطع طريق التجارب والالم ، وعندما ينضج التجرد لله ويصبح كاملا يتوقف الاحساس بالالم . »

وتنهد ساتياكام بعمق وأكمل : « ان المسرات تكمن في ارضاء الغرائز ، ولكن الخير يتطلب ترويض النزعات الدنيا ، وتحويل الاعمال الواعية الى عادات في اللاشعور . »

« ان أوهام الحياة يجب أن تختفي ، والاحلام الغريرة يجب أن تتبدد قبل أن تتحقق الحياة المقدسة »

وفى أمسية أخرى بينما ساحات المعبد ما زالت تتلظى تحت شمس الخريف ، توافد المؤمنون بدون انقطاع ليستمعوا الى محاضرة ماهاراج الرائعة ، لم تكن كلماته وحدها هى ماتسحر الناس ، رغم انها تسحرهم بالفعل ، وانما احساسهم بأنه يجسد القداسة والحكمة .

فى ذلك اليوم كان عدد من طلبة الجامعة حاضرين بين الحشد ، ونظر اليهم ساتياكام ، وهو مسترخ فوق أريكته ، متسائلا ، فرفع أحد الطلبة يده ، وأشار اليه ماهاراج بالحديث .

سأل الطالب برغبة حقيقية فى المعرفة :

ـ ما هو التعليم الحقيقى ياماهاراج ؟

ـ « التعليم الحقيقى هو مايحرر روح الانسان ، المعرفة يجب أن تتحدد مع الحقيقة ، لأن الحقيقة تؤدى الى الحرية ، وليس معنى الحرية أن تتدفق مياه الفيضان بلاحائل ، وانما أن تتدفق بيسر بين ضفتى النسبية »

سأل طالب أخر فى شىء من الانزعاج :

ـ « اذن هل كل مانتلقاه من تعليم علمانى واكاديمى غير حقيقى ولا جدوى منه ؟ »

ابتسم ماهاراج ، وقال وهو يتحكم فى نفسه :

ـ « ان المعرفة العلمانية غير حقيقية .. بمعنى انها لاتوفر اجنحة لروح الانسان ، ولكنها حقيقية ونافعة فى مجالها الخاص »

تساءل الطالب الأول فى أدب :

ـ « هل المعرفة الحقيقية التي تفضلت بالحديث عنها قادرة على معرفة كل شىء بما فى ذلك العلوم والفنون وسائر الانسانيات ؟ »

أجاب ساتياكام فى محبة مؤكدا :

ـ « هذا صحيح من حيث المبدأ ، فعندما تحقق ذاتك روحيا يمكنك أن تعلم كل شىء بطريقة خلاقة ومباركة ، ولكن فى مجال تحصيل المعرفة يحتاج الانسان الى التعليم العلمانى الذى هو مجرد شذرة ضئيلة من المعرفة الكلية » ولهذا فإن المعرفة العلمانية غير مباشرة بينما المعرفة الروحية مباشرة » .

وسأل طالب ثالث :

ـ « اذن هل ينبغى على المرء أن ينبذ التعليم الاكاديمى ويتبع فقط طريق المعرفة الروحية ؟ » .

أجاب ساتياكام فى تفهم :

ـ « هذا ليس بالضرورى ، ان كل شىء يتوقف على ما تريد وماتقودك اليه طموحاتك ، وفى النهاية .. فإن هدف كل المعرفة ـ سواء كانت علمانية أو غير ذلك ـ أن تعرف النفس الحقيقية أو الروح ، العلم ، قد يسمى ذلك « الكنه » ، أما الخلاف الاكبر بينهما فهو ان العلمانية لا تؤدى الى الارضاء الكامل ، بينما المعرفة الروحية تفعل ذلك . »

وسأل طالب آخر :

ـ هل هناك أية فرصة للتوفيق بين المعرفة المباشرة والمعرفة غير المباشرة ، ياماهاراج ؟

ندت عن ساتياكام تنهيدة عميقة ، وقال :

ـ « نعم ، ويجب أن يكون الامر كذلك ، عندما تعرف نفسك حقا تحقق خلود الروح ، ومن ثم تعيش فى صحوة دائمة وفرح ، ومن ناحية اخرى فإن المعرفة العلمانية تعطيك المقدرة على الحياة فى هذا العالم النسبى . »

« ولكن بدون الصحوة الروحية يصبح العلمانيون مخلوقات جوفاء وغير كاملة .. مجرد آلات ذكية ، ولهذا فمالم تشرف الروح فى العقل وتوحد بين الحياة ، والجسد ، لن يتوقف الصدام بينهما ، وتحقيق الدنيوات لن يكون ممكنا مالم تتغلغل فيها الروحانيات وتقشع منها ظلام الجهالة . »

« ثم ماهو الغرض من المعرفة مالم تؤد الى التحرر من الجهل ، وتأتى بالنور ؟ »

■ ■ ■

مضى نحو عامين على وفاة روهيت ، وأصبح بوران الآن فى حوالى الثالثة من عمره ، كان ولدا شديد الذكاء ، عليه مسحة لاتنتمى الى هذا العالم ، فوجهه يتوهج كالملائكة ، ولم يكن بحاجة أن تذكر له الشىء مرتين حتى يفهمه ، وغالبا مايبدو هادئا ساكنا خلافا للأولاد فى مثل سنه .

وكان يصرف معظم أوقات فراغه فى مراقبة امه وهى تقوم بواجباتها

الدينية فى معبد « كالى » أو الجلوس بجانب ابيه فى الدرس ، وكثيرا ماكان يحاول تقليد أمه فيما تفعل ، وخلال جلسات الدرس كان يراقب الجمهور فى رد فعله لأقوال أبيه .

وكان الناس يمتدحون بوران ، ويقتربون منه لتقبيله أو مداعبته ، ولكنهم ما أن يقتربوا منه حتى يفر هاربا بدون تكبر أو خجل ، فقد كان نضجه الداخلى يجعله فى غير حاجة لعناية أو اهتمام من الخارج ، وثمة شعاع من الحكمة يشع من عينيه وهو يجلس القرفصاء الى جانب أمه فى المعبد ، أو الى جانب أبيه فى الدرس ، بينما جسده يظل بلا حراك على نحو يثير الدهشة ، فيقول عنه الناس انه يوجى بالميلاد .

وفى مناسبة الاحتفال بعيد شارادا يوجا جاء الناس الى المعبد بأعداد كبيرة ، وكانت الشخصية الرئيسية فى الاحتفال هى بهيرافى التى كانت تلتفح بسارى من الحرير الابيض له كنار أحمر كالدم ، وتطوق بالزينات الذهبية عنقها وذراعيها ويديها ، وتضع على جبهتها علامة حمراء كبيرة تضفى عليها مظهرا مقدسا ، وتجعل وجهها يشع بالفتنة المباركة ، ووقفت أمام صورة المعبد تؤدى الاحتفال فبدت كتجسيد للأم المقدسة ، كان ظهرها للجمهور ، وأمام تمثال الآلهة جلس ساتياكام وبوران على يمينها وشمالها ، وفى أقصى اليمين جلس كابالاك الذى دعى خصيصا لتشريف الحفل .

وفى لحظة معينة بدأت المراسم بقيام بهيرافى باداء طقوس العبادة بحركات ايقاعية منتظمة ، ودقات الطبول والاجراس ترافق حركاتها وتلقى بسحرها نوم فى ارجاء المكان ، وبين حين وآخر يرتفع صوت الصلاصل يوقظ النفوس النائمة ، كانت موجة من السحر تكتنف كل ارجاء المكان .

وأخذ جسد بهيرافى يتأرجح تدريجيا مع وقع الطبول ومراسم العبادة ، وعندما بلغت الطقوس ذروتها أخذت الشموع وأعواد البخور تتساقط من يديها وغابت عن الشعور بكل ماحولها ، وأخذت التضرعات تتصاعد من شفاه النساء الى الأم المقدسة التى تجسدت فى بهيرافى ، أما الرجال فكانوا يرددون « ما .. ما »[1] والدموع فى أعينهم .

---

(١) ما بمعنى الأم

وترنحت بهيرافى ، وبدت على وشك السقوط فأمسكت بها سيدتان وقادتاها برفق الى مقعد فوق المسرح ، كان جسدها يبدو بلا حراك ، مجرد حزمة ناعمة من اللحم والعظام بعينين نصف مغلقتين تحملقان فى الداخل ، وهناك وهج لايوصف يشع من وجهها .

وجلس الجمهور صامتا لايتحرك ، وفيما عدا بعض الناس الذين كانوا يقومون لمشاهدة بهيرافى .. غاب الجميع عن العالم الخارجى ، بينما واصلت الطبول والاجراس والصلاصل سحرها الموسيقى مع تضرعات النساء .

وظل بوران طول الوقت صامتا ينظر الى أمه ، ثم لم يستطع أن يتحمل اكثر فانفجر فى بكاء عال ، رفعه أبوه ، وهو لايزال مستغرقا فى الجو المقدس ، فوضعه فى حجره وضمه الى صدره ، فهدأ بوران ، وظل كابالاك محلقا فى النشوة العليا .

وبعد قليل ، أخذت عينا بهيرافى تتفتحان فى بطء ، وبدت على جسمها مظاهر الحياة ، وادارت عينيها الواسعتين فيما حولها ، ولكن نظرتهما ظلت مركزة على الداخل ، وانهمرت سيول من الدمع من عينيها الواسعتين الحمراوين اللتين تشعان بالحب والنقاء .

وراحت بعض النسوة يخلين المكان من الشموع والبخور ، وسادت البهجة الجمهور مرة أخرى ، واستدارت بهيرافى فى بطء وواجهت الناس الذين أخذوا ينحنون لها وأيديهم معقودة على صدورهم مؤمنين بأن مجرد مرآها يزيل نزعة الشر ، وظلت أيدى المؤمنين معقودة على صدورهم وقتا طويلا .

■ ■ ■

عندما بلغ بوران الرابعة من عمره بدأ ساتياكام يعلمه الدروس ، وفى اليوم السابق لبدء الدروس أقام ساتياكام احتفالا صغيرا فى معبد ساراسواتى ، ربة التعليم ، كان بوران يبدو كالملاك الصغير يأتذر بقطعة من القماش المقدس حول وسط العارى ورأسه حليق بالكامل الا من خصلة كذيل الحصان فى مؤخرة رأسه ، وعلى جبهته علامة صغيرة من عجينة الصندل ، وقدماه عاريتان ، وكان وجهه بل جسمه كله يشع فى طهر ونقاء ، وفى ختام الحفل عندما انحنى أمام تمثال الالهة كان مثالا للاخلاص العميق .

بدأ ساتياكام يعلمه الابجدية السنسكريتية فى جمل ومقاطع صغيرة ، وكان بوران متعطشا للعلم فمضى يقفز عبر الدروس بسرعة وشهية طيبة ، وخلال عام واحد استمر فى هضم كل ما علمه له أبوه فى حماسة لاتكل ، ولكنه لم يكن ينسى ان يروح عن نفسه أيضا فيلعب ويرمح مع لداته الاطفال فى الفناء المكشوف ، وكان من الواضح انه يتفوق على رفاقه جميعا ، مما جعل الناس يراقبونه بعيون شرهة مركزين على الهالة النورانية من حوله ، ولم يكن شغوفا باللعب والدمى كغيره من الاطفال فيما عدا المزمار الذى حاول أن يعزف عليه .

وفى الامسيات ظل الدرس الدينى يعقد كل يوم كالمعتاد ، وأخذ عدد الحاضرين يتزايد من جميع المشارب بما فيهم سياسيون وطنيون ورجال مقدسون ، وانتشرت شهرة ساتياكام كالنار فى الهشيم ، حتى ضاقت ساحة المعبد عن احتواء كل الجمهور الآتى لسماعه ، ومع ذلك ظل الصمت والانصات يميزان المكان ، لايكاد يقطع الهدوء الاصيحة طفل بين الحين والحين .

وذات يوم بهيج وصل وطنى معروف لزيارة ماهاراج ، وعندما أتخذ الجميع مجلسهم ، سأل الوطنى متحديا : ماهى الدارما [١] ؟

- « هى كل ماتفعل »

جاء هذا الجواب الحاسم من ماهاراج فألجم الغريب وجعله عاجزا عن النطق بضع لحظات ثم استجمع قواه وسأل :

- « ألسنا ملزمين بالواجب نحو وطننا ومهبط رأسنا ؟ »

أجاب ساتياكام :

- « بالطبع ، دون شك .. ولكن كيف تحدد حدود مهبط رأسك ؟ القرية أم الولاية أم الدولة أم الكرة الأرضية أم المجموعة الشمسية أم الكون بأسره ؟ أنت ملتزم ازاء ما يعتقد ضميرك انه مهبط رأسك ، اليس كذلك ؟ العالم كله اسرتى كما يقول المثل ، اذن فالامر يتوقف على ما تعتقد انه عالمك .. هذه

---

(١) الدارما : القانون والواجب والقوة التى تمسك بالاشياء وتعنى الدين أيضا .

هى الدارما بالنسبة لك »
سأل الوطنى فى لهجة خفيضة :
ـ « هل معنى ذلك ان كل فرد له دارما مختلفة ؟ »
ـ « ان لنا سواء افرادا أو جماعات دارمات مختلفة طبقا لمزاجنا ومرحلة تطورنا » .
ـ « أنا سعيد لكونك تحدثت عن الدارما الجماعية أيضا ، لأن علينا أن نستجيب جماعيا لحاجات الوطن فى مرحلة تطوره الراهنة وأن نعمل طبقا لذلك ، اليس كذلك ؟»
ـ « لقد أجبت بالفعل على ذلك ، ما لم تكن تقصد أن علينا جميعا أن نقفز فى نفس القارب ، مما يعنى ان الجميع لهم بالضرورة نفس الكارما ! وهناك نقطة أخرى هامة هى أن خدمة وطننا يمكن أن تكون بمختلف الطرق ، مالم تكن تقصد أن هناك ميدانا واحدا فقط اكثر اهمية هو الميدان الذى يهمك بالذات ! »
ابتسم الوطنى كما لوكان قد أمسك به متلبسا واعترف قائلا :
ـ « لقد أصبت الفأس فى الرأس أيها الماهاراج » ولزم الصمت ..
سأل رجل مقدس آخر :
ـ « ما السر وراء الحياة والموت ؟ ألا يمكننا التغلب على الموت والفناء ؟ »
أجاب ماهاراج :
ـ « أن أمنا الطبيعة لها طريقة غامضة فى تجديد نفسها بصفة مستمرة عن طريق اعادة الخلق وارتداء ثياب الشباب ، وبالرغم من أن التغير خاصة كامنة فى الطبيعة ، فإن الحياة ملازمة لها دائما ، ولذا فان التغير يتجسد فى الميلاد والموت ، ويساعد الطبيعة على أن تستمر فى حياة قوية متلاحقة لايقطعها بالطبع الا الميلاد والموت » .
« اذا كانت الحياة لتستمر فى وجود جامد نقى لما كانت هناك حاجة للتغير النسبى ، ومن ثم لن تكون هناك حياة نسبية كما نعرفها ، اذن فظاهرة الميلاد والموت تتبع بالضرورة نوع الحياة التى اخترناها ، واذا أمكن تجنب الموت ، وبالتالى الميلاد .. لتوقفت كل دارما الحياة ، ووصلنا الى حالة من الوجود الازلى الصافى » .

« ان الميلاد والموت يمكن تشبيههما بطرق مختلفة ، مثل الملابس الجديدة والقديمة ، أو بابين للدخول والخروج ، وهما كذلك بالفعل ، ولهذا يمكن القول من الناحية الفلسفية : ان تجنب الموت والفناء يتطلب تجنب الميلاد والتجدد ، ولكن هناك طريقة واحدة للتواجد الفعلى فى هذا العالم النسبى بدون فناء وموت الجسد المادى ، هذه الحالة يمكن الحصول عليها بمعرفة السر الداخلى للطبيعة والتناسق معه بقوة الارادة ، وهذا يتطلب ممارسة قوية لأساليب اليوجا عن طريق معلم قدير » .

« أن الطاقة تتخلل الكون ، وما على الانسان الا أن يقتنص هذه الطاقة ويعيد بها شحن كيمياه الحيوية . وهذا التنشيط للخلايا لايأتى بالضرورة من خارج الجسد ، وانما من الداخل أيضا ، فالداخل والخارج على أية حال وجهان لعملة واحدة ، وبهذا تتجدد الطاقة ، والمصدر يوجد فى الداخل والخارج ، وبعد ممارسات طويلة يكتشف الانسان سر الطبيعة التى هى حقا بسيطة وسهلة المعرفة »

سأل سائل :

ـ « ما الذى يجعل هذه المعرفة السهلة صعبة الاكتشاف ؟ »

أجاب ساتياكام بأسلوبه المعتاد :

ـ « العادات .. نحن مشغولون للغاية برغباتنا وأفعالنا اللاشعورية بحيث أن هذه العادات تخلق سياجا حول شخصيتنا ، وهو بالتالى يخفى السر الحقيقى لأمنا الطبيعة ، فهذه العادات تنسج قوقعة حول الطبيعة الحقة ، وتجعل من العسير معرفتها .

« ولذا ، حتى يصل الانسان الى هذه المعرفة عليه ان يستخدم أساليب معينة بارادة واخلاص لمقاومة العادات السابقة ، ومن الصعب عليه أن يفعل ذلك دون مساعدة استاذ مؤهل مبارك » .

■ ■ ■

تقدم بوران فى دراسته سريعا وبلغ السنة الدراسية الخامسة ، وفى هذه السنة وحدها استمع الى كثير من قصص البطولة والاساطير الروحانية وهو جالس عند قدمى أبيه أو فى حجر أمه ، وكان يسأل اسئلة فلسفية اكبر بكثير من سنة وأجاد القراءة والكتابة ، وكانت بهيرافى تدهش لكثرة معلوماته

وتعزوها دون شك الى ميلاده السابق ، وكثيرا ماكان يتفوه بمعنى فى غاية العمق والتنور يجعلها فى فكر عميق واعجاب وفرح خفى .

وتوالت الأيام وواصل بوران دراسة الحساب والاساطير والفلسفة ووصل الى السنة السابعة ، كان طفلا موهوبا ، مخلصا ، مكرسا همه للعلم ، وبدا على بهيرافى انها تكن له احتراما خاصا ، وبدأت ترى فيه عظمة لامثيل لها ، وتأمل أن تجد الارشاد على يديه !

■ ■ ■

ان الأحداث القادمة تلقى بظلالها أمامها ، أحس ساتياكام بوضوح ان الوقت قد حان لينفرد بنفسه مرة اخرى كى ينهى مابقى عليه من رحلته نحو الأعلى ، شعر أنه قد آن الأوان ليتحلل من قيد الاسرة والرغبات مهما كانت هذه الاشياء طيبة ونبيلة ، ان كل مرحلة فى حياته لها هدفها المحدد ، وبمجرد أن ينتهى هذا الهدف تصل المرحلة الى نهايتها ، اما التمسك بها أكثر ذلك فمن شأنه أن يطيل فترة غير ضرورية ، وهذا يجعله ببساطة فى مستنقع راكد ، وكان ساتياكام من الحكمة بحيث تعرف على مفترق الطرق هذا فى حياته العظيمة الواعدة .

وذهب به الفكر الى استاذه القديم الذى لم ينسه قط أو يشعر بابتعاده ، وتمنى أن يراه ويقابله ، وتذكر وعد استاذه له بان يظهر له كلما احتاجه .

فى الصباح التالى ، عزم ساتياكام أن يلتقى مع كابالاك ، وبينما هو يقترب من كوخه رأى كابالاك عائدا من شاطىء النهر وعلى شفتيه ابتسامه مباركة عريضة ، واقترب منه كابالاك ووضع يده اليمنى على كتفه اليسرى دون اية رسميات كالصديق الحميم ، وقال فى محبة :

- هذا حسن .. سوف تقابل أستاذنا قريبا .

استفهم ساتياكام وعيناه تبرقان :

- وماذا عنك أنت ؟

- ماذا عنى ؟ . اننى على مايرام !

وضحك الاثنان من أعماقهما .

أخذت بهيرافى يوما بعد يوم ، تلحظ تغيرا بسيطا فى ساتياكام ، ولكنها لم تعلق ، فيما عدا مسحة من الحزن البسيط أصابتها ، وملأها الفضول لتعرف

ماحدث .

فى منتصف احدى الليالى ، وكان بوران نائما ، هبت بهيرافى من سريرها وذهبت الى حيث ينام ساتياكام فلم تجده فى سريره ، أحست بغصة فى قلبها ، ولكنها سرعان ما استجمعت رباطة جأشها ، وخرجت من المنزل ، كان البدر ساطعا فى قبة السماء ، ورأت ساتياكام جالسا يتأمل بالقرب من البحيرة ، فاقتربت منه فى بطء وهدوء ، وجلست على الأرض قبالته ، فتح ساتياكام عينيه والتفت بوجهه اليها ».

سألته بهيرافى فى صوت مرتجف :

ـ « ما الذى يحدث لك هذه الأيام ؟ »

ـ « لقد انتهت أيام هذا الفصل من حياتى » .

قاطعته بهيرافى :

ـ « هذا مالاحظته »

ظل الاثنان صامتين برهة ، ثم استأنفت بهيرافى :

ـ « ولكن ماذا عنى أنا ؟ »

أجاب ساتياكام وفى عينيه نظرة بعيدة :

ـ « لقد انتهت أيامك معى أيضا »

قالت بهيرافى كأنها تحاول أن تثنيه عن فكرته :

ـ « ولكنى لا أرى ذلك ، وماذا عن بوران ؟ »

نظر اليها ساتياكام فى محبة وقال بصوت خفيض ولكنه مشحون بالمشاعر : « سوف ينمو بوران تحت رعايتك وحدب ماتاجى » .

خفضت بهيرافى رأسها اجلالا لذكرى ماتاجى ثم قالت :

ـ « أنت تبحث عن خلاصك ، فماذا عن خلاصى ؟ »

مس ساتياكام رأسها بيده اليمنى يباركها ، وكانت هذه أول مرة يعاملها كأكبر منها ، وأجاب : « سوف يأتى خلاصك أخيرا خلال بوران ، لسوف يحقق هدفه فى فترة قصيرة نسبيا ، وبمساعدته وبركته سوف تحققين الاستغراق الروحى ، وتقضين السنوات الأخيرة من حياتك على ضفاف نهر ناربادا »

سألت بهيرافى فى حزن : ألا يمكن أن يأتى خلاصى خلالك ؟ »
- « هذا ممكن .. ولكن مهمتى مختلفة ، اننى سوف اتركك لا لكونك عبئا على ، ولكن لأن وجودنا معا قد استنفد غرضه »
- « ألم تقل يوما اننى مرشدتك ؟ »
- « نعم ، ولكن المرشد لايستقر على حال ، ذات يوم تقمصتك الأم المقدسة وجعلتك تساعديننى على تحقيق مصيرى ، ولكنها الآن تتقمص الأكوان وتأمرنى أن أتصرف طبقا لذلك » .
سألت بهيرافى وقد بدأت تفهم :
- « ألا يمكن أن يستمر الدوران جنبا الى جنب ؟ »
قال ساتياكام :
- « نعم ، ولكن على أن احقق الهدف الذى حددته لى أمنا الطبيعة » .
قالت بهيرافى وقد عادت امرأة مرة أخرى ..
- « انك لم تعد تحبنى ! »
- « اننى لا أحس بأنى سأنفصل عنك ، ولذا فإن مسألة الحب لاتثور هنا على الأطلاق ، انه مجرد انفصال جسدى ، أما روحانا فمتحدتان ، وعلى ذلك فإن الحب حاضر باستمرار ، انت ذروة فى الحب والاخلاص وسوف تصيرين مثالا للحب أمام الناس ، ورغم هذا الانفصال الجسدى سيظل حبك ساطعا عاليا » .
وفى تلك الليلة رأت بهيرافى ماتاجى فى الحلم ، كأنها حقيقة واقعة ، رأت ماتاجى تطير متراجعة فى الهواء ويداها ممدودتان وهى تدعو بهيرافى اليها وتقول : « تعالى الى .. تعالى الى .. تعالى .. تعالى » حتى اختفى شكلها وراء سلسلة غامضة من الجبال ، واستيقظت بهيرافى فرحة تصيح « ماتاجى .. ماتاجى ! »
أمسكها ساتياكام بين يديه ، كان وجهها يشع بالفرح التام وهى تقول : « لقد فهمت الآن .. لقد حان الوقت لالتحق بالأم المقدسة » ثم سألت من كان ذلك الطفل الذى تمسكه فى يدها ؟ بوران .. على ما أعتقد ! »
أجاب ساتياكام : « أجل »
وتمتمت بهيرافى : « ماتاجى تعرف كل شىء »

بدأ الخريف يتحول الى شتاء ، انتشرت الأخبار فى كل أنحاء المنطقة بأن ماتاجى قد وصلت ـ ونادرا مايحدث ذلك ـ وهى تدعو المؤمنين بها للقاء فى كلكتا ، فأخذ ساتياكام زوجته بهيراق وابنه بوران يستعدون للقاء ماتاجى . وقبل مغادرتهم كادامبينى انتشرت الانباء مرة أخرى بأنهم قد لايعودون مرة أخرى ، وفى محطة السكة الحديد الصغيرة التى تبعد أربعة أميال ، وصلت جحافل من الناس لتوديعهم بالدموع فى أعينهم وأكاليل الزهر فى أيديهم ، وعلى مرأى البصر كانت صفوف من الوجوه الدامعة تلمع فى شمس الصباح ، وثمة هتافات تتعالى الى عنان السماء « النصر لماهاراج .. النصر لديفى ! » وصاح واحد من الحشد « النصر لبوران » وكان كل واحد يحاول الاقتراب من الزوجين المقدسين ليلمس أقدامهما ، ثم اقترب ناظر المحطة ومس أقدامهما باحترام وقادهما الى مقصورة الدرجة الأولى .

نفثت القاطرة نفثة من الدخان وبدأت تسير جارة وراءها القطار كالحلزون البطىء ، وأخذ بعض الناس يتعلقون بالقطار كما لو كانوا يحاولون منعه من السير . وتجمع آخرون حول القطار يشهقون بالبكاء ، وأخذ القطار يزيد من سرعته تدريجا مخلفا الناس يبكون وراءه ، بينما وقف ماهاراج وبهيراق وأكاليل الزهر حول عنقيهما يردان تحية الجماهير من نافذة القطار ويلوحان بايديهما ، وبين الحين والأخر كان بوران يظهر بينهما ليتفرج ، وكان هو الآخر مثقلا بأكليل الزهر .

وظل الناس يحملقون فى القطار حتى اختفى وغاب عن الانظار .

[٤]

الصمت .. الشتاء

وتعاقبت الأميال ..
ميلا بعد ميل

يأخذ نهر الجانج فى الإتساع تدريجا منذ يغادر منابعه فى جبال الهيمالايا مارا بالوديان والسهول والمدن والقرى إلى أن يصل إلى كلكتا ، وهى آخر مدينة فى مساره قبل أن يصب فى خليج البنغال ، وفى طريقه يحمل معه القاذورات والمهملات والصرف الصحى ، ولكن عندما يقف المرء فى هدوء على ضفته ويتطلع إلى صفحته يجد له هالة سحرية تشفى النفوس ! وتعتمل فيه مشاعر التقوى والورع التى تتغلب حتى على اعتبارات الخير والشر ، كيف لا .. وهو الذى يمتص الخطايا السود لكل هذه البشرية ويبتلع ظلام الجهل ؟ إنه كالأم الرحيمة التى تساعد أبناءها وترشد خطاهم فى الحياة وينالها فى هذه الأثناء الاعياء والكهولة ، ولكن يا لها من تضحية مجيدة !

فى كاليخات بكلكتا التقى ساتياكام ومعه بهيراڤ وبوران مع ماتاجى فى منزل أحد خلصائها ، كانت ماتاجى فى انتظارهم ! وكان ثمة كرسى خاص قد وضع إلى جانب كرسى ماتاجى ليحتله ما هاراج ، والبيت كله مشحون بالطاقة والنشاط ، فيالها من بهجة أن تجتمع كل هذه النفوس العظيمة فى مكان واحد ! من المؤكد أن صاحب البيت الذى تنزل فيه ماتاجى شخصية مباركة حقا .

تبادلت ماتاجى وماهاراج التحيات المألوفة ، ثم دعت ماتاجى بهيراڤ وابنها الى الجلوس بالقرب منها ، فانحنى الاثنان أمامها ، وسألت ماتاجى الصبى وهى تبتسم « ما اسمك ؟ »

أجاب الصبى بحلاوة : بوران[1]

قالت ماتاجى برقة : يا له من اسم مناسب ، ادعو الله أن تحقق معنى أسمك .

ردت ماتاجى باخلاص : انه طفلك ياماتاجى

ارتسمت على وجه ماتاجى ابتسامة حلوة ونظرت إلى ثلاثتهم فى ود وبركة ، فياله من أمر نادر أن تجتمع كل هذه النفوس الطاهرة .

وفى المساء وصل الكثيرون من تابعى ماتاجى لتحية القادمين ، وبينما كانت بهيراڤ وبوران يجلسان معها انسل ساتياكام خارجا من المنزل

---

(١) بوران : حرفيا « كامل »

واستأجر عربة يجرها حصان واتجه نحو شمال المدينة ، وتوقف فى طريق منعزل على مسافة عدة أميال ، ونزل من العربة ، وأخذ يسير نحو نهر الكانج ، كان النهر فى هذا المكان فسيحا يبلغ عرضه اكثر من ميل ، وفى مكان منعزل على الشاطئ وجد بعض الدرجات الحجرية وقف إلى جانبها بلا حراك يحدق فى النهر ، ثم أغلق عينيه ولمس جبهته بيديه وهمس قائلا : « أيها النهر العظيم .. اجعلنى طاهرا كما أنت طاهر ، أنت الذى تقيم أود الجميع وتحنو عليهم كالأم الرؤوم ، ساعدنى أن أحقق مصيرى ، وكما أنت كامل أصبغ كمالك علىّ » ..

وفرت دمعتان من عينيه المغلقتين ، وظل واقفا بعض الوقت يغمره الشعور بالخلاص والنور ، وما كاد ينتهى من فرد قامته حتى سمع وقع خطوات وراءه ، فنظر حوله ولكنه لم ير أحداً .

عند الغروب تحولت الشمس الى كرة كبيرة حمراء من اللهب قبل أن تغيب وراء الأفق على الضفة المقابلة لنهر الكانج ، وساد هدوء صوفى ، فاتخذ ساتياكام مجلسه فوق الدرجات فى وضع تأملى ، هذه هى أول مرة منذ اثنتى عشرة سنة يشعر فيها أنه وحيد حقا ، ولكن ما أشد ما يشعر به من امتلاء !

لم يكن هناك أى أثر لانشغال أو قلق ، وبدا له أن لا شىء الآن يحول دونه وهدفه سوى أن يرى استاذه ، ذلك الذى لم تفارق ذكراه خاطره هذه الأيام ، من يتصور أن اميالا قليلة فقط تفصله عن زوجته العظيمة وابنه الذى سيصبح عما قريب عظيما ؟ لقد بدا له انه تفصله عنهما قرون ، كما لو كانت حكاية تجسد آخر ، ولكن هل كانا منفصلين عنه حقا ؟

كان ذلك هو وقت تفشى الشتاء فى الخريف ، وثمة لسعة خفيفة من البرد ، ولكن الطقس ما زال لطيفا فيما عدا بعض الخطوط الحمراء فى الأفق ، وقد غربت الشمس تماما الآن ، وكانت همسات الماء فى نهر الكانج ونقيق الضفادع فى مكان قريب ولمسة رقيقة من النسيم العليل .. هى كل الشواهد الناطقة بالحياة فى هذه الساعة من الغروب .

ومرة اخرى سمع ساتياكام وقع أقدام وراءه فنظر خلفه ، واذا به هذه المرة يرى نفس الشيخ العجوز ذا اللحية البيضاء الذى أمره منذ اثنتى

عشرة سنة ان يتوجه إلى قرية كادامبينى ، فانتفض واقفا ثم انحنى ووضع رأسه على قدمى الرجل العجوز ، وانهمرت من عينيه دموع الفرح .

وصاح ساتياكام :

جوروووف ... لن اخطئك مرة أخرى !

ثم سأله بعد برهة :

— كيف لم أرك عندما يسمعت وقع أقدامك أول مرة ؟

تحدث الاستاذ فى لطف قائلا :

— « يبدو أنك فقدت بعض ملكاتك ولم يعد فى مقدورك أن تتصل بى وراء الصوت المسموع ، لذا فقد انتظرت حتى يرتفع مستواك إلى بعد أعلى ويمكنك أن ترانى ، ولكن كل شىء على ما يرام الآن »

وبعد فترة صمت قصيرة سأل الاستاذ : « ما الذى تنوى أن تفعله الآن ؟ »

أجاب ساتياكام فى استسلام كامل :

— « سأفعل كل ما ترشدنى إليه »

— « اركب القطار الى سفوح جبال الهيمالايا الشرقية إلى مكان يسمى سيليجورى ، وسوف أقابلك هناك ؟

قال ذلك ، واختفى الشيخ ذو الرداء الابيض .

كان الليل يرخى سدوله فى هدوء ، وبدأت النجوم اللامعة تظهر تباعا فى صفحة السماء السوداء ، واتجه ساتياكام نحو محطة سكة حديد كلكتا .

■ ■ ■

فى الصباح التالى ، عندما غادر ساتياكام القطار فى سيليجورى اقترب منه ناسك فى رداء قرمزى فى أواسط العمر ليستقبله ، وبعد أن تبادلا التحية المعتادة قال الناسك : « لقد أمرنى استاذنا أن أرشدك إلى المكان الذى سوف تلتقيان فيه »

وعندما غادرا مبنى المحطة استأجرا عربة يجرها جواد ، سارت بهما أميالا قليلة ثم نزلا منها ، واستأنفا السير فى طريق جبلى .

كانت مزارع الشاى الضخمة تمتد على الجانبين ، وأمامها ترتفع

·السلاسل الأولى من جبال الهيمالايا الشرقية ، وظل ساتياكام ورفيقه صامتين أغلب الوقت ، ثم تركا الطريق الرئيسى واتجها شرقا نحو طريق مهجور أخذ يرتفع بهما تدريجيا تحف بهما أوراق النباتات الخضراء ، وسارا زهاء ثلاثة أميال قبل أن يصلا إلى جدول بهيج يتلمس طريقه خلال الغابة ، لم يكن الجدول عميقا ، واجتازاه خوضا والماء يصل إلى ركبهما .

وشعرا بالهدوء التام والانقطاع الكامل عن صخب المدينة وضجيجها فجلسا لبعض الراحة فى ذلك الوسط المنعزل ، وأحال سحر هذا الفصل من فصول السنة الجبال والوديان إلى بانوراما أخاذة من الألوان ، وراحا يملآن صدريهما بهذا الهواء البارد .

أحس ساتياكام بالتعب أكثر قليلا من رفيقه ، اذ كان قد مضى عليه أكثر من اثنتى عشرة سنة دون أن يتسلق الجبال .

فتح الناسك مخلاه ، وأخرج منها طعاما ، وفيما هما يأكلان قال الناسك « لا يزال أمامنا أن نمشي حوالى ميلين حتى نرى أستاذنا ، أنه يقيم فى بقعة منعزلة جدا لا يعرفها حتى الكثيرون من الرجال المقدسين ، فلا أحد يذهب إلى هناك ، وقد عثر استاذنا على كهف حسن لنقيم فيه » وكان ساتياكام ينصت فى هدوء دون أن يقول شيئا .

مر الميلان الباقيان بلا أحداث فيما عدا الصعود الشاق ، وشعر الاثنان بشيء من التعب ، ولكن الامتحان بالمشقة لم يدم طويلا ، وفى نهاية الرحلة استقبلتهما مراع منبسطة تحيط بها قمم الجبال .

فى أحد أطراف المرعى إلى جانب الجبل ، كان ثمة جدول رقراق بالماء العذب ينهمر أمام كهف ، وكان الاستاذ يقف هناك فى انتظارهما ، كان يبدو هو هو لم يتغير ، بنفس الملابس التى كان يرتديها فى سونار لينجا بشمال وسط الهيمالايا منذ اثنتى عشرة سنة ، لم يطرأ عليه أى تغيير .

انحنى ساتياكام ورفيقه على قدمى الاستاذ ، كانت تبدو على الحكيم معالم الجدية والرحمة ، وابتدر قائلا : « ساتياكام ، الآن تبدأ مرحلتك الأخيرة من الرحلة ، عليك ان تتغلب على ما تبقى امامك من العقبات وتصل إلى السلام التام :

انحنى ساتياكام مرة أخرى على قدم الاستاذ ، وعندما اعتدل واقفا لاحظ ان الناسك الذى جاء به قد اختفى ، وبالرغم من انه لم يدهش الا ان الاستاذ قال موضحا « ذلك كان صورة منى وعاد إلى جسدى مرة أخرى »

بعد أن قضى ساتياكام يوما فى الراحة ، عاد يسأل الاستاذ عما اذا كانت هذه هى نهاية تجاربه ، فقال له الاستاذ وهما يجلسان فى الكهف :

— « تخلص من كل رغباتك وهواجسك وأفكارك وذب فى المنبع الاصلى ، كما يفعل العنكبوت عندما يختفى داخل نسيجه ، ولاحظ انه حتى اعظم القوى الخفية مجرد نتاج من هذا الجوهر ، وبالتالى ليست اكبر منه ، والسحر ليس بالضرورة علامة على الروحية »

« والمطلق لا يمكن الوصل اليه ، انه موجود بذاته ، والذهن مجرد شذرة منه ، ولذا فإن الذهن لا يمكنه أن يركز عليه موضوعيا ليفهمه ، ولكن كل ما يمكن أن يفعله أن يعود إلى الكل ، أى الوعى الكلى ، لذا اسلم نفسك إلى الصمت العظيم كما تندمج قطرة من الماء فى المحيط » .

ظل ساتياكام صامتا بينما واصل الحكيم كلامه :

— « الرغبات نهمة لا تشبع ، ولحسن الحظ فإنك قد حققت رغباتك الملحة إلى اقصى حد ممكن ، وبعد هذه النقطة ستظل الرغبات تدور وتتكرر ، تخدر الاحساس على المستوى الجسدى والاثيرى ، والرجل الحكيم هو الذى يعى هذا الدرس ويتسامى على عادة تكرار الرغبات » .

كان ساتياكام يستمع فى استغراق لاستاذه ولا يقول شيئا .. بينما استمر الحكيم قائلا :

— سوف أعلمك فى هذا الكهف اليوم أرفع تقاليد اليوجا وهى انتهاج الطريق إلى راحة الصمت العظيم »

هبط الشتاء بكل قوته ملقيا عباءة بيضاء على قمم الجبال ، وقام ساتياكام بأوامر استاذه بالاستحمام فى الجدول المجاور ، وألقى ثيابه فى النهر كما أمره الاستاذ والتحف بملاءة ، وعاد الى الكوخ .

وأشار له الاستاذ إلى كرسى معين فجلس عليه شادا قامته ، ومغلقا عينيه ، ولم يتفوه الحكيم بشىء ، وإنما بدأ يتصل به فى صمت لاعداده للمهمة العظيمة التى تنتظره .

أخذ ذهن ساتياكام يتراخى تدريجا ، وبدأت امواج الفكر تتلاطم فى داخله ، كانت مثل حلقات السلسلة تتقطع واحدة بعد أخرى ، وملأه شعور جديد بالطهر والنقاء ، ولم يعد شاعرا بشىء حتى وجود استاذه ، فقام الاستاذ وغادر الكهف بهدوء .

وظل ساتياكام يزاول الاسترخاء على هذا النحو يوما بعد يوم . عندما تقترب النفس من الكمال النهائى تتعاقب عليها صور وذكريات الماضى بكل مشاعره وافكاره كأنه يحاسب نفسه حسابا عسيرا ، ثم ينتصر فيه شعور جديد بالرقة والانبهار ، وتبدأ الشاكرا السادسة تتفتح .

ومر عام كامل لم يقابل فيه ساتياكام أحدا سوى استاذه ، وكان استاذه يجلب له بعض اللبن والفاكهة التى يعيش عليها ساتياكام كطعامه الوحيد ، وأحيانا كان ينفلت خارجا من الكهف ليغمر نفسه فى ماء الجدول أو يغتسل فيه ، وأحيانا أخرى يمشى قليلا فى المراعى الناعمة ، ونادرا ما يتبادل مع استاذه الحديث بالكلمات ، بل يكتفيان بالاتصال الداخلى فى صمت .

وذات يوم طلب منه الحكيم ان يؤدى له قسما جديدا ـ هو الأخير ـ على الا يخرج من الكهف فى ضوء النهار لمدة اربعين يوما ، مهما كانت الحاجة الا اذا عم الظلام .

وقبل أن يتعهد ساتياكام بذلك قال له الاستاذ : « سوف أراك مرة أخرى بعد الاربعين يوما ، واذا ألمت بك أية حاجة فى هذه الأثناء سوف تلبى ، وعليك أن تعتصم بالصمت »

واصبح ساتياكام يغيب بالساعات وأحيانا بالأيام فى صمت داخلى ، غافلا حتى عن شروق الشمس وغروبها ، وكثيرا ما كان يبدو له تناول الطعام كأنه حلم ولى ، فكان يعيش فقط على الهواء والماء والطاقة المستمدة من الشمس ، وبدا كأن الزمن قد توقف بالنسبة لساتياكام .

كان جسده النحيل يتألق بالطاقة الأثيرية ، وزادت اللمعة الغامضة فى عينيه ، ونمت لحيته السوداء حتى انسدلت على صوره ، كما نما شعر رأسه البنى اللون ، وانسدل على كتفيه ، وبعد قضاء تلك الأيام فى الظلام أصبح وجهه الهادىء يلمع كالشمس المتوهجة ، ولم يعد يشعر بالبرد .

وانتهى الشتاء الثانى مع نهاية الأيام الاربعين من الابتعاد عن ضوء النهار ، بدت له تلك الفترة كأنها ليلة طويلة بلا أحلام ، وبترته عن العالم كلية ، ولم يعد يشعر بحاجة إلى أى شىء حتى جسده الفيزيقى .

وفى اليوم الأول بعد انتهاء فترة القسم بدأ يصعد الجبال إلى ارتفاعات مجهولة ، بدا له كأن مهمته على الأرض قد انتهت ، ولم يعد يهمه أين يكون جسده ، فى أى وقت وعلى أية حال ، فوق جبال الهيمالايا المقدسة .. كأنه محارة قديمة .

كان الجو شديد الضباب فى الارتفاعات العليا وشديد البرودة أيضا ، ولكن ساتياكام لم يعد يهمه أين تحمله قدماه ، وأحيانا كان ينطبق أمامه الطريق فلا يجد مخرجا سوى أن يخوض مجرى ماء . وأصبحت المنطقة التى يضرب فيها وراء خط الأشجار مكسوة فقط بالعشب الأخضر فى كل الاتجاهات ، وكانت الأرض مازالت مكسوة بالبرد الأبيض .

وعندما اجتاز مجرى ماء ووصل الى الجانب الآخر بدأ جسده يرتعد بشدة وتكالب عليه البرد والاجهاد ففقد السيطرة على نفسه ، وأغمى عليه ، وارتمى على الأرض تحت قبة السماء الضبابية . وفى أغماءته رأى بعينه الثالثة مساحة من الضوء ظهر فيها أستاذه كجهاز الردار وتحدث اليه قائلا :

« ساتياكام ، لا ينبغى أن تتخلى عن جسدك المادى هكذا ، لا تزال امامك مهمة عظيمة هى ان تساعد البشرية وتهديها إلى بركة السلام الفريد ، قم معى »

فتح ساتياكام عينيه ، فرأى أمامه أستاذه الحكيم وسط هالة من الضوء تفوق الوصف ، وبهدوء قام ساتياكام من على الأرض .

توقف الثليج الآن عن الهبوط ، وأصبح الجو أقل ضبابية ، وبدأ الاثنان يهبطان الجبل معا حتى وصلا الى الكوخ مع غروب الشمس .

[٥]

التنوير .. (الربيع)

وانحسر برد الشتاء

بدأ الجليد يذوب من قمم الجبال ، ومع مقدم الربيع عادت الطيور تتقافز خلال الغابات الخضراء تسبح بحمد خالقها ، وأخذ العشب الذابل الأصفر تضرب فيه الخضرة ، وقدمت المراعى مسرحا للفرح الراقص مبثوثا بالأزهار الرائعة فى كل مكان ، واستأنفت جداول الماء مهمتها الجليلة فى اطفاء حرقة العطش لدى الجماهير ، وتحولت السماء الرمادية إلى بللورية زرقاء ، وصارت شمس الصباح وهى فى أوج لمعانها تستمع إلى تسابيح قطرات الندى المنثور على البساط الأخضر .

كان ساتياكام تمثالا للصمت ، من الممكن أن تسميه حجرا واعيا أو صمتا مجسما ، ويبدو غير آبه بأى شىء من حوله ، ولكن هل كان حقا كذلك ؟ إنه الآن طول الوقت على اتصال صامت مع أستاذه ، لا ، بل إنه يشعر بالأستاذ ساكنا فى داخله على الدوام ، لقد تحول هو وأستاذه إلى شىء واحد .

وتجاوبا مع الطبيعة من حوله صار ساتياكام يطفو مع الحقيقة والجمال والخير .. من الذى يقرر ؟ من الذى يتجاوب ؟ من الذى يستجيب ؟

غادر ساتياكام الكهف ، وبدأ يصعد الهيمالايا ، وكان مقدم الربيع وتحسن الجو قد دفعا الكثيرين من القرويين والمارة إلى تسلق الطرق الجبلية ، وكانوا عندما يرون ساتياكام يحيونه بانحناء فى احترام عميق ، ولكن كان « ساتياكام »[1] يتركهم جميعا وراءه ويمضى وراء هدفه لا يريم .

بعد مسيرة يوم كامل وصل إلى نقطة تبعد عشرة أميال عن دار جيلينج ، كانت بقعة صخرية غير مسكونة يكاد لا يكون أحد قد مر بها من قبل ، وهناك عثر على كهف صغير بسط فيه ملاءته ، ثم خرج .

إلى الشرق يقوم جبل ايفرست شاقا عنان السماء الصافية الزرقاء وتغطيه عباءة جليلة من الجليد ، رأسه العالى يخترق السماوات ويشع بالنقاء والعظمة وتكاد رسالته تقول : « تعال إلىّ يا من تنوء بحملك فتخلص من قيودك وابحث عن الحرية داخل نفسك الحقيقية » ومنه تمتد سلسلة جبال كاشينجونجا إلى الغرب مجللة بالصمت والجلال .

فى هذا المكان وسط هذا المنظر الأخاذ من أمنا الأرض ، قرر ساتياكام أن يقيم ليشن هجومه الأخير .

---

(١) ساتياكام : حرفيا الباحث عن الحقيقة ..

مرت الأيام ، دون أن يغير من جلسته ولو لحظة واحدة ، وذات ليلة صافية أقبل بدر التمام يلتمع فى السماء ، كأنه يرنو إلى هذا الصمت الجليل ، وكانت النجوم تلتمع فى حواشى السماء إلى أبعد ما تراه العين من أعماق .

كان ساتياكام جالسا على مقعده يحدق فى ايفرست الرزين ، ثم أغمضت عيناه .. هل كان يتأمل ؟ هل احتواه الصمت العظيم ؟ أم هل كان ينتظر ؟

وبينما هو جالس وعيناه مغلقتان لمع سؤال كالضوء البارق شق شاشة الصمت فى ذهنه : « ترى ما الذى يمنعنى حتى الآن من الوصول إلى التنوير الكامل ؟ »

ارتفع الجواب الصامت من أعماقه « أنت ! ان التنوير مطلق وليس نسبيا .. إما الذات ، وإما التنوير »

وتلاه سؤال آخر من داخله : « لقد كنت دائما أومن بوجود الله ولكنى لم أره مطلقا ! ترى هل الله موجود حقا ؟ »

جاء الرد : نعم ، إنه موجود .

وأشرق فى ذهنه ضوء شديد أقوى من ألف شمس مجتمعة !

ثم فاض السؤال الأخير : ما أسمك ؟

وجاد الرد من داخله : إن لى أسماء كثيرة .. إننى أظهر فى الشكل الذى تعبدنى به .

ثم اختفى الحوار ، وأختفى أيضا ساتياكام مثل الليل الذى تشرق عليه الشمس ، لقد أضاءت فيه الشاكرا السابعة ، وانغمس ساتياكام فى « صمادى »[1]

لقد انتهت الرحلة الاسطورية ، وتحول ساتياكام إلى ساتياناندا[2] ، جلس حيث هو مغمورا بالنور والبركة ، وأخذت أسرار الكون وقواه تتكشف له واحدة بعد الأخرى ، إنه لم يعد « يتلقى » المعرفة ، التى هى قابلة لأن تتغير ، بل أصبح وعيا خالصا ، الذى هو لايتغير .

---

(١) التوحد مع الروح

(٢) ساتياناندا : مبارك فى الحق

وشعر أنه صار هو والله والكون الفسيح شيئا واحدا وتحقق بذلك من قانون الكل فى واحد . لقد تنور ساتياناندا ، وحفت به ملائكة غير مرئية احتفالا بالنصر العظيم الذى أحرزه هذا المقاتل الجسور . ونثرت الملائكة الأزهار الاثيرية على هذا الطفل الذى وضعته روح الهيمالايا العذراء .

وظل حيث هو جالسا بلا حراك غائبا فيما فوق الوعى أياما كثيرة بلا عدد ، وذات يوم هب واقفا ونظر حوله ، كانت عيناه تشعان بريقا مقدسا ، مثلما رأى منذ فترة بعيدة فى عينى البجعتين فى البحيرة ، وكانت هالة من الضوء تحيط برأسه ، وبدا عليه الجلال .

نظر إلى ايفرست .. بدا له الجبل خاشعا ، وراح يخطو متئدا خطوة خطوة كأنه ملك الملوك هابطا منحدرات الجبل حتى وصل إلى الطريق الرئيسى ، لقد مر الآن وقت طويل منذ شاهد كائنات بشرية تسير ، لم يكن أحد من هؤلاء الناس يستطيع مقاومة الانحناء امامه فى اجلال ، وكانت وجوههم هم أنفسهم تشع بالنور وهم يتطلعون إلى ساتياناندا وهالته الضوئية ، وشعروا بالتواضع الشديد فى حضرته فلم يعرفوا من هو ، ولم يتجرأ واحد منهم على سؤاله .

غربت الشمس ، فعبر ساتياناندا الطريق ووقف محتميا بصخرة بارزة بحيث لا يمكن أن يراه أحد ، ومد ذراعيه ونظر إلى السماء كطائر كبير ، وبث كيانه دفئا ولمعانا ثم اختفى جسده المادى ، وسافر عبر الأثير فى السماء حتى عاد إلى الظهور على شاطىء المحيط عند بورى بولاية اوريسا فى الشرق ، وقضى الليل فوق الرمال .

وفى الصباح الباكر عندما سقط أول شعاع للشمس على أمواج المحيط اتجه ساتياناندا نحو معبد جاجانات ، وكان الذين يرونه وهو يمشى فى الشوارع لا يعرفون كيف يرفعون اعينهم عنه ، ولا يعرفون ماذا يفعلون أو كيف يبدأون ! لقد رأوا كثيرا من الرجال المقدسين يزورون هذا المعبد الشهير من قبل ، ولكنهم لم يشاهدوا مثل هذه القوة والنور ، فلم يستطيعوا الاقتراب منه ، فكانوا ينحنون أمامه حتى يمر .

ورآه الكاهن وهو يدخل بوابة المعبد فأقبل نحوه يحييه ويصحبه إلى قدس الأقداس فى الداخل ، وانحنى ساتياناندا باحترام بالغ أمام سيد الكون ،

وبعد قليل انسحب بخطواته إلى خارج المعبد واتجه مرة أخرى نحو الشاطىء .

وانتشرت الأنباء سريعا ، وسرعان ما هرعت مجموعات من الناس لرؤية الرجل المقدس النادر ، جلس ساتياناندا صامتا فوق الرمال فى وضع يوجى والتف الناس حوله منحنين ولم يستطيعوا أن يرفعوا أعينهم عنه كما لو كانوا برادة حديد يجذبها مغناطيس ، والقى هو نظرة عليهم ، ولم يقل شيئا .

وأخيرا تقدم منه رجل عاقدا ذراعيه على صدره ، وسأله فى احترام بالغ ، وتواضع شديد : « هل لنا أن نتشرف بمعرفتك القدسية ؟ »

تحدث ساتياكام :

— « كما أنه يصعب أن تحدد مسار طائر يطير فى السماء ، كذلك يصعب التعرف على أحوال حكيم »

وتقدم رجل آخر يسأل :

— « أين تقيم ، ياسيدى ؟ »

— « أقيم فى البيت المشترك لجميع الكائنات .. فى الذات العليا »

استمر الناس يحدقون فيه ، وأحضر أحدهم فاكهة وازهارا وضعها أمامه ، فباركها فى صمت وأعادها اليهم ليوزعوها على الناس ، وجاء آخرون بمزيد من الفاكهة والأزهار ، فباركها مرة أخرى ووزعها بنفس الطريقة .

وسرعان ما اقترب منه المتهالكون والمرضى ورجوه أن يشفيهم ، فنظر اليهم ساتياناندا فى اشفاق ومس أجسادهم برقة ، فزال عنهم الألم وبدأوا يشعرون بالشفاء ، وظل الناس محملقين فى صمت .

وظلت رمال الشاطى يغطيها الناس طول اليوم ، واستمر آخرون يقبلون تباعا ، وفى آخر النهار قام ساتياناندا وانغمس فى البحر ليستحم ، والجميع يراقبونه ، وانتظره اثنان على الشاطىء بملابس جديدة ولكنها بسيطة ، وبعد ذلك أكل بعض الفاكهة ، وقصد إلى المعبد حيث دعى ليستريح هناك ، وتبعه رجلان رجوا منه أن يقبلهما كتلميذين ، فكرسهما ساتياناندا وأعطاهما إسمين جديدين : أوباساك وشريكانت .

وفى الصباح الباكر غادر بورى سيرا على الاقدام ومعه تلميذاه فى بداية رحلتهم ، وراحوا ينتقلون من مكان إلى مكان ، وأينما ذهبوا كان الناس

يلتفون حولهم ، واذا سأل أحدهم سؤالا رد عليه فى رقة ووضوح .

وعلى هذا النحو واصل ساتياناندا رحلة حجيجه الأرضى ، وكان خلال ذلك يشفى الجراح والامراض ، ويبين للناس طريق الصحة والقداسة الروحية ، ويكشف لهم أن الشقاق هو السوس الذى ينخر فى جذور المجتمع ، وأن معرفة الوحدة والوحدانية هى العلاج لكل أمراض الانسان والمجتمع .

وعندما وصل إلى بنارس كانت شهرته قد سبقته إلى هناك ، واجتمع على ضفاف نهر الكانج كثيرون من المثقفين والرجال المقدسين لرؤيته والحديث معه ، وتقدم منه رجل مقدس مثقف وسأله .

— « ما هى حقيقة المطلق ؟ »

أجاب :

— « حقيقة المطلق لا يمكن تعريفها بأى طريقة ، يكفى القول إن الحقيقة العليا غير ثنائية ، لا توجد حقيقة أخرى بجانبها ، أما إذا حددت الشيء فانك تحد منه »

سأل نفس الرجل المثقف :

— « هل معنى ذلك انه ليس هناك إله ؟ »

— « نحن نعرف بالتجربة أن الروح المطلق هو الله وهو السبب الأول للكون ، ولكن ليست هناك سببية حقيقية ، ان العالم مجرد ظاهرة عابرة .. وهم .. ظهور فى المادة ، وهذا الوهم له دلالته ليس ، من زاوية مطلقة ، وانما من الزاوية النسبية » .

سأل بانديت[1] آخر : « ما هو الوهم ؟ »

— « الوهم .. ليس حقيقة أو غير حقيقية .. أنه يبدو حقيقة لأن الحواس تدركه ، ولكنه ليس حقيقة لانه غير دائم » .

وهنا أيضا تقدم منه عدد من الرجال راجين ان يأخذهم كتلاميذ فاختار واحدا منهم ، واطلق عليه اسم فيدياباتى .

وتقدم هو يحيط به تلاميذه نحو الجنوب ، وأخذوا يقابلون كالمعتاد ناسا من مختلف الطوائف والمعتقدات .

---

(١) بانديت : سيد

وفى ما دوراى ، عندما كان فى معبد ميناكشى وحوله جمهرة غفيرة من الناس اقبل عدد من المثقفين يخترقون الصفوف وجلسوا بالقرب منه ، نظر ساتياناندا إليهم فوجد مسحة من الغضب على وجوههم وسأله أحدهم : سمعنا انك تعلّم الالحاد .. هل هذا حقيقى ؟

أجاب فى رقة بالغة :

— « ان الروح المطلق لا يدخل فى مفاضلة مع الانظمة المختلفة .. ان مجرد المحافظة على الأصول لا يفضل الالحاد ، ومثلما أن الجسد لا يدخل فى عراك مع أطرافه ، كذلك الروح المطلق لا يتنازع مع أى فلسفة ، إنه يكتنفها جميعا »

ظل هؤلاء الناس متحفزين لا يدخل السلام قلوبهم ، فمس ساتياناندا صدورهم بأصابعه الشافية ، فمسح على الفور قلقهم وشعروا بالراحة والخلاص ورأوا وراء علمه الغزير محبته تغزو قلوبهم .

وتحدث ساتياناندا مرة أخرى :

— « إن الله لا تمكن معرفته ، ولا يصح فى تصوره أن ننزل الى رأى الجماهير .. ان الاخلاص لله هو وحده الذى يؤدى إلى التحقق الروحى ومعرفة الوحدانية وهؤلاء الذين يعرفون الذات العليا يطلقون عليها اسماء مختلفة ويشرحونها بوسائل مختلفة »

« اكتشفوا فى قلوبكم روح الوحدة والكلية ، وتجنبوا الشقاق والنزاع كى تعود الاجزاء المتصارعة إلى مكانها الصحيح فى الكل الواحد » .

واختار منهم تلميذا آخر اطلق عليه فاكتديف .

وسار ساتياناندا يصحبه تلاميذه الاربعة حتى وصلوا الى قرية قبيلة كولى فى منتصف الغرب ، وهناك تقدمت مجموعة صغيرة من سكان القرية على رأسهم امرأة تبكى وتولول وهى تحمل طفلها الميت بين ذراعيها ، فارتمت على قدميه ورجته أن يعيد طفلها إلى الحياة ، فتردد ساتياناندا فى أول الأمر ثم طلب من المرأة أن توسد الطفل على الأرض ، ووضع كفه على رأس الطفل الميت ، وأغلق عينيه وردد بعض الكلمات فى صمت .. ففتح الطفل عينيه فى بطء ، وعاد إلى الحياة !

وأقبل رئيس القرية وفى صحبته حشد كبير ليقدموا إليه فروض الاحترام بعد أن سمعوا بما حدث ، وهو أمر لم يشاهدوا مثيلا له من قبل ، ولكن كان من بينهم بعض المثقفين المتشككين ، قال أحدهم فى أدب : « يقال ان استخدام القوى السحرية ضار بالنمو الروحى ، ويجب على الانسان أن ينبذ السحر كى يبلغ هدفه »

تحدث ساتياناندا :

— « ليست هناك فائدة من استنكار السحر من الناحية النظرية ، فالانسان ، عمليا ، متعود على ما هو اسوأ من السحر كالحسد والغضب والانانية ، والقوى السحرية عندما تستخدم كأسلحة للعدوان تصبح مدمرة للروح ، ولكنها اذا استخدمت بلا انانية وبنية طاهرة .. قد تؤدى إلى الراحة فى الحياة . ان القوة فى أى شكل لها ، سواء قوة غاشية أو سحرية ، يمكن أن تكون ضارة أو نافعة ، وهذا يعتمد على الهدف الذى يوظفها فيه الانسان »

واصل ساتياناندا رسالته الرائعة مقيما جسرا ذهبيا فوق جهل الروح البشرية ، وقلبه المستنير يساعد قلوب الناس فى عملية التسلق الصعبة من الظلام إلى النور ، وكثيرا ما كان الاسى العنيد يذوب فى قلوب الناس بمجرد تطلعهم إلى محياه الجميل .

فى سوخديف على ضفاف نهر نارباوا التقى ساتياناندا بمجموعة من اليوجا ، كانت الانباء قد سبقته وتجمع الناس فى انتظاره ، وكان هناك سبب عاطفى آخر ساهم فى تجميع الناس من المناطق المجاورة ، فمنذ بعض الزمن حانت وفاة بهيراق فى هذا المكان ، وسجى جسدها قبل أن تفارقه الحياة على ضفاف النهر ، وفعل بوران الكثير من أجل مساعدة أمه على الانتقال قبل ان يمضى ويختفى داخل الغابات الكثيفة .

أخذ الناس العاديون يوجهون إلى ساتياناندا مختلف الاسئلة ، وكان يجيب وهم يتكلمون فى نفس الآن ، ولا يكادون يسمعون منه شيئا ، فقال لهم ساتياناندا . « من الأفضل أن تفتحوا اذانكم وتغلقوا أفواهكم بدلا من العكس ، ان اللغو يفسد عمل الارادة ، والحقيقة لا يمكن ان يستوعبها من لا يستمعون إليها ، ولكى تكتشف الاعماق الشاسعة المجهولة للحق ينبغى

عليك أن تلتزم الصمت ، فكيف يمكنك أن تحقق البهجة التي تبحث عنها بشعورك أو لا شعورك دون أن تفعل ذلك ؟ »

هبط الهدوء على الحشد كالحمامة البيضاء ، وأقام ساتياناندا فى القرية عدة أيام فى حوار واتصال مع شيوخ اليوجا ، واختار اثنين منهم كتلميذين له ، وأعاد تسميتهما : شراواڤان ونيشتاڤان .

وبعد ذلك أخذ هو وتلاميذه الستة يتحركون فى نبل وشجاعة من مكان إلى مكان ، حتى وصلوا إلى دواركا على الساحل الغربى ، وبينما هو جالس فى شرفة المعبد وتلاميذه على يمينه قدم بعض الكهنة والحجاج وجلسوا بهدوء حولهم .

سأل أحد الكهنة ساتياناندا :

— « هل طريق العبادة يؤدى إلى الخلاص .. أم هو طريق المعرفة الذى يؤدى إليه ؟

ابتسم ساتياناندا ابتسامة حلوة ، ورد بسؤال آخر :

— « ماذا تعنيه بكلمة الخلاص ؟ »

ارتبك الكاهن وتلعثمت على شفتيه الكلمات ، يبدو إنه لم يفكر مطلقا فيما تعنيه كلمة الخلاص ، ربما كان يكررها طول حياته بطريقة آلية كالببغاء لأنه قرأها أو سمع بها ! وأخيرا بعد أن أجهد ذهنه قال : « الخلاص هو الحرية من الاسى ، الشعور بالسلام والسعادة ، لا مقلقات أو منغصات ، لا فقر .. وما إلى ذلك »

تحدث ساتياناندا :

— « إذن هل تعتقد ، مهما تخيلت ، انك حين تعرف الله بطريق العبادة تكون لا تزال تحتفظ بالأسى والقلق والشقاء والاضطراب ؟ »

— « لا »

— « لنفكر فى الأمر أكثر ، ما الذى يتسبب فى الشقاء ومشاعر الأسى ، من هو الذى يشعر بالأسى والشقاء ؟ »

أجاب الكاهن

— « أى شخص .. أنت .. أنا .. الجميع »

عاد ساتياناندا يسأل مرة أخرى :

— « ما الذى تقصده بكلمة شخص .. أنت .. أنا ؟ »
ألجم الكاهن ، وقبل أن يجد اجابة ، قال كاهن آخر فى صوت عال « النفس أو الوعى الفردى »
قال ساتياناندا معبرا :
— « باختصار .. الذات ؟»
رد الكاهنان فى صوت واحد « نعم »
— « إذن اليس من الواضح إنك عندما تذوب فى الله أو الروح العليا تتلاشى الذات .. الا يؤدى ذلك إلى خلاصها من الأسى والشقاء ؟ بكلمات أخرى : أليست الذات البشرية « هى الأساس الوحيد للشقاء ، وأليس الخلاص من الاسى يعنى الخلاص من الذات ؟ »
وافق الكاهنان : « هذا حق »
واستمر ساتياناندا :
— « لنعد الآن إلى سؤالك الأصلى ، اذا ذابت الذات فى طريقى العبادة والمعرفة بمعنى خلاصها بهما لا يكون هناك فرق أساسى بين الطريقين .. هل تتفقان معى ؟
أجاب الكاهنان : « نعم »
— « ولكن الفرق يكمن فى المدخل فقط ، ففى طريق العبادة تكون العبادة هى الأساسية والمعرفة ثانوية . وفى طريق المعرفة يكون البحث هو الأساسى والعبادة ثانوية . والطريقان يؤديان إلى ذوبان الذات الذى هو أكبر وسيلة فعالة تؤدى إلى الخلاص »
حف عليهم الهدوء ، وفجاة حلق فوقهم فى السماء بهدوء ببغاء جميل على رأسه ريشه مغلقة كأنه قارب ساحر يبحر فى الماء .. ياله من جمال !
وتحت شرفة المعبد ، فى الساحة الفسيحة ، كان يجلس على الأرض المتربة شحاذ فقير مصاب بالشلل ظل يشاهد ويسمع طول الوقت دون أن يفهم كلمة واحدة ، كان كل انتباهه الخارجى مركزاً على ساتياناندا ، أما اهتمامه الداخلى فمركز على شلله ، وانتهز فرصة الهدوء الذى ساد الآن فزحف حتى وصل إلى الشرفة ، وضغط جبهته فى حافة الارضية الرخام وقال

بصوت متقطع حزين : « أرجوك أن تباركنى حتى أتخلص من هذا المرض اللعين » !

نظر ساتياناندا إلى الرجل المسكين بإمعان واقترب من حافة الشرفة ، ووضع راحته فى مكان ما على عنق الرجل المريض وأخذ يدلك أعلى عموده الفقرى بعض الوقت ، فبدأت عينا الرجل تقفلان فى بطء ، ثم ما لبث أن غاب عن الوعى ، فاندفع أوباساك وفاكتديف نحوه فأمسكا به وسجياه على الأرض ، وظل الرجل على هذه الحالة بعض الوقت كأنه غائب فى النوم ، ثم بدأ جسده يفيق ، وفتح عينيه بالتدريج ، وأمره ساتياناندا قائلا : « قم » فقام الرجل سليما معافى .

وصاح الجمهور الغفير فى صوت واحد « المجد للماهاراج » !

وتقدم الكهنة فمسحوا أقدام ساتياناندا وعيونهم ممتلئة بالحب ، وقالوا : نريد أن نكون حوارييك إذا وجدت أننا نستحق !

فاختار واحدا منهم ، وأسماه بافيترا ، ثم واصل الرجال الثمانية رحلتهم التى لا تنتهى ، وتبعهم الناس حتى أطراف المدينة ، واتجهت مجموعة الصالحين نحو جبل « آبو »

فى طريقهم ، التقوا بشاب صغير كان هائما على وجهه يبحث عن استاذ له ، وانجذب الشاب مغناطيسيا نحو ساتياناندا ، فأقبل تبدو عليه ملامح الصدق والاخلاص ، وانحنى أمام ساتياناندا وسأله فى احترام بالغ : هل رأيت الله ؟

جاء الجواب بسيطا ومباشرا : « نعم ! »

قال الشاب فى رجاء : « اذن هل يمكن ان تباركنى برؤيته ؟ »

جاء الجواب مباشرا من ساتياناندا :

— « نعم ، بشرط أن تلبى متطلبات ذلك وتتطهر تطهرا كاملا حتى تكون جديرا برؤيته »

ألقى الشاب بنفسه على قدمى ساتياناندا الذى قبله على الفور تلميذا له وأسماه شاراندیف .

ويوما بعد يوم ، أخذ الناس يتجمعون بالمئات حول ساتياناندا وحوارييه ، فأينما ذهبوا كانت الجماهير تتجمع حولهم لرؤيته والاستماع إليه ، وكم كان

يشفى من أمراض ، ويقضى من حاجات ، ولكنه لم يكن يبقى هو وحواريوه فى مكان واحد طويلا .

ووصل التسعة ذات مساء ألى كوروشترا فى الشمال ، وتجمع الناس حولهم فى الفندق الصغير بالقرب من المعبد الشهير ، وفى الليل تجمعت جمهرة كبيرة من الناس فى ساحة المعبد ، وتقدم منهم شاب وسئل ساتياناندا :

— « هل حياة التأمل افضل من حياة الفعل ؟ هل نبذ الفعل ضرورى للحصول على البركة العليا ؟

أجاب ساتياناندا :

— « هذان ببساطة طريقان .. طريق الحكمة ، وطريق الفعل ، ومجرد أن يتخلى الانسان عن الفعل لا يعنى هذا أن يحصل على التحرر من النشاط ، لأن طبيعة الانسان ترغمه على أن يفعل سواء اراد أو لم يرد »

« الانسان الذى يرفض الفعل ، ولكنه طول الوقت يفكر فى الأشياء الحسية ، مخدوع ومنافق ، الأنسان لا يستطيع أن يصل إلى الكمال بمجرد الامتناع عن الفعل »

« أما طريق الحكمة فهو خاص بالذى يتأمل فى الذات الالهية ، ويوقف حياته على ذلك ، ولا يكون هناك شىء آخر أمامه ليفعله .. أى التجرد تماما لعبادة الله ، ولا يعود يهمه المكسب أو الخسارة .

« إذن فالبركة العليا لا تتوقف على ما تفعل ، وإنما على مواقفك ودوافعك »

« هؤلاء الذين يتصرفون حسبما تمليه عليهم رغباتهم فقط يصنعون جنتهم أو جحيمهم ، يشبعون ملذاتهم واطماعهم . والنتيجة الوحيدة .. الميلاد من جديد ، أما الحكماء فقد هداهم ذكاؤهم الفطرى إلى نبذ ثمار الفعل ، وهكذا تخلصوا من سلسلة اعادة الميلاد ، ووصلوا إلى البركة العليا ، لقد تغلبوا على أنفسهم واختفت رغباتهم ، وبهذا لم يعد الفعل ذا جدوى لهم ، ووصلوا إلى قمة الحرية الكاملة »

عند انتهاء الدرس أقبل هذا الشاب ولمس قدمى ساتياناندا ثم ثنى ذراعيه على صدره وقال : « لقد قررت اتباع طريق التأمل ، هل تقبلنى تلميذا لك يا سيدى ؟ »

عبر ساتياناندا عن موافقته بابتسامة وغير اسم الشاب إلى اريان

واتجه العشرة إلى الشمال الشرقى ، وفى مكان ما دعاهم تاجر غنى إلى حديقة منزله ، كانت خلف المنزل خميلة جميلة جلس فيها ساتياناندا يحيط به حواريوه لاعطاء الدرس لاعضاء الاسرة ومعارفها ، ووقف شريكانت وفيدياباتى أمام المنزل لتحية القادمين والترحيب بهم .

وبينما ساتياناندا يتحدث فى الجمع ، عاد شريكانت ووقف بأدب عاقدا يديه على صدره ، وبعد قليل تنبه له ساتياناندا فتوقف عن الحديث ونظر إليه ، قال شريكانت :

— « سيدى .. هناك مجموعة من السيدات عند الباب يرجون الأذن بالدخول للحديث مع فضيلتك » فوافق ساتياناندا .

تقدمت احداهن يبدو أنها تتحدث نيابة عنهن وقالت فى أدب :

— « يبدو أن الرجال فقط هم تلاميذك الموعودون بالخلاص ، فماذا عنا نحن ؟ » .

أجاب :

— « النساء أيضا موعودات بالخلاص ، ولكن حياتى هى حياة التجوال ، لذا من غير العملى أن تصاحبنى النساء أينما ذهبت »

عادت المرأة تسأل فى خشوع :

— « هل هذا يعنى أن ليس لنا أمل حتى لو اخترنا أن نتبعك ؟ »

— « ليس بالضرورة ، المسألة تتوقف على تحديد الطريق المناسب لمساعدتكن على النمو الروحى . »

سكتن جميعا فى انتظار تعليماته ، وبعد برهة تحدث ساتياناندا ، فقال :

— « يمكنكن إنشاء مركز للنساء فى بنارس وسوف يشملكن الارشاد .. يمكن تسميته شاكتى بيث »

واختار ثلاثا منهن وأعاد تسميتهن شارادا وفيمالا وشوردوشى ، وكلفهن بالاشراف على المركز واعطاهن التعليمات اللازمة .

كان ساتياناندا قد بلغ الخامسة والسبعين من العمر ، وشعر أن رسالته على الأرض قد انتهت ، وعليه أن يلقى بوصيته وتعاليمه الأخيرة ، فترك الناس وراء ظهره وأخذ تلاميذه التسعة المختارين ، وساروا نحو منطقة لاداخ داخل شمال الهيمالايا ، وبعد رحلة استمرت عدة ايام وصلوا إلى بقعة منعزلة بها عدد من الكهوف وتحيط بها أشجار جوز الهند الطويلة ويسير فيها جدول ماء عذب ، يبدو عليها إنها كانت مسكونة فى زمن ما .

احتل كل منهم الكهف الذى حدده له الاستاذ ، وكان هناك كهف كبير يقوم على حافة الهوة فى مواجهة الوادى العريض الهادىء أعدوه للاستاذ ، كان الجدول يمس حافة الكهف ، ويتدفق إلى أسفل فى شلالات رائعة الجمال ، والوان الطيف تنعكس على رذاذ الماء المتطاير ، والمكان بأكمله بالغ الروعة والسحر ، لا يمكن أن يفضله مكان آخر للمهمة الأخيرة فى رسالة ساتياناندا .

فى كل كهف منصة حجرية كالسرير محفورة داخل الجدار ، بسط عليها التلاميذ ملاءاتهم جاعلين جزءا منها إلى أسفل ، تاركين الجزء الأعلى كغطاء لاجسادهم . ولم تكن هناك تهوية فى الداخل سوى فتحة الباب المنقورة فى الصخر - أما حاجاتهم فتقتصر على أوانى الشرب التى نقروها فى الحجر وبعض أوراق الكتابة ومجموعتين من الملابس البسيطة .

واستقر كل منهم فى كهفه ، وبعد أيام قليلة بدأ التسعة يجتمعون فى كهف الاستاذ صباحا ومساءً ليرشفوا من رحيق حكمته الخالدة .

وفى أول يوم يلتقون فيه كان ساتياناندا يجلس على سريرهِ الصخرى المغطى بجلد غزال ، وبدأ يتحدث إليهم :

— « لكى يحصل الأنسان على الحب الالهى عليه أن يتخلص من حاسة الامتلاك ، ولا ينتمى إلى أى عقيدة أو طبقة أو وطن على وجه التحديد ، عليه أن يضم فى صدره العالم كله ، كن كالشمس التى تسبح حرة فى الفضاء الرحيب تنير الظلام ، وتهتك ستر الجهل . »

كان التلاميذ يستمعون فى انتباه بالغ ، وألقى ساتياناندا نظرة عبر مدخل الكهف إلى السماء الشاسعة وقمم الهيمالايا البعيدة ، وعلت وجهه مسحة من الهدوء العميق ، وأكمل :

— « حرر نفسك من أسر الرغبات ، وتحرر أبديا ، ان كل ما يعتمد على الزمان والمكان يخضع للتغيير ويكون فانيا .. ان علم الخلود يجيء بالتأمل فى الروح الخالدة ، وهى فى الحقيقة روحك الحقة ، فأنت والكون واحد .

« ولكن ذلك كله لا يمكن معرفة طبيعته الحقة بمجرد المناقشة .. استبعد كل حديث لا جدوى منه وركز على شيء واحد .. التأمل .. التأمل .. التأمل .

« ان الذين ينظرون وراء ظهورهم يتبعون الظل ولكن الذين ينظرون تجاه الشمس الساطعة يتركون الظل ، وراء ظهورهم .

سأله فيدياباتى :

— « ما هى خاصة النفس أو الروح التى يجب أن يتأمل فيها االأنسان ليصل إلى الحقيقة ؟ »

أجاب ساتيانانداا :

— « الروح لا يمكن معرفتها بالحواس ولا بالعقل .. انها الجوهر الحقيقى لكل شيء ، إنها مصدر كل الخصائص ، فكيف يمكن إدراكها أو فهمها بأية خصائص نسبية تتقيد بالزمان والمكان ؟ !

« إن أقرب ما يمكن فهمه عن خصائص المطلق بقدر ما تتسع اللغة هو : الوجود والوعى والبركة .

« ولكن ما لم تذهب وراء الكلمة المنطوقة وامواج الفكر لن يمكنك أن تواجه الحقيقة وجها لوجه ، لذا عليك وأنت تتأمل أن تتجاوز كل أنواع القيود الذهنية والنظريات الفلسفية ، وكلما ارتفعت وأنت تحلق فى السماء اتسع أمامك الأفق . كن على ثقة أن الحق الأعلى يستوى على عرشه ، ولا شيء يرفعك إليه سوى أن تذوب فى الحقيقة المقدسة التى ينبع من قلبها الحب الواسع العميق ، بهذا الطريق وحده يمكن للانسان أن يرى شذرات البركة تنفصل وتعم الكون كله »

يوما بعد يوم ، اندمج الحواريون أكثر وأكثر فى التأمل ، وفى أوقات فراغهم كانوا يجمعون الحطب ويطهون بعض الطعام الخفيف ، وكان نومهم قليلا ، ولا شيء يسعدهم قدر أن يلتقوا حول استاذهم ليلقى على وجوههم نظرة وهو الذى يعيش فى المستوى الأعلى من الحقيقة الخالدة ، وشيئا فشيئا بدأت القوى السحرية تظهر فى البعض منهم ، ولكن ساتيانانداا أصر على أن

يتجاهلوا ذلك ، ليس لأن هذه القوى شر فى حد ذاته ، ولكن لأنها قد تحول نظرهم عن الهدف الأعلى وكانوا هم يتبعون ارشاداته بلا نقاش ، وبعضهم يسجل على الورق أقواله وتعليقاتهم عليها .

وذات مساء ، قال لهم ساتياناندا :

« ان الهدف الأعلى هو تحقيق الذات بالبركة الالهية ، انه يتفوق على كل المسرات المشتقة من الجسد المادى والثراء والأسم والشهرة والأستاذية ، وحتى سعادة هؤلاء الذين يعيشون فى العالم الأثيرى ، ويمكن للناس أن يتحرروا من كل ارتباطات الجسد والذهن اذا نقبوا فى قرارة أنفسهم ، فيما وراء العقل ، وانغمسوا فى محيط البركة الالهية »

سأل أريان :

— « ماذا يكون الحال اذا لم يكن لديهم ايمان وإنما يعتمدون على العقل كلية ، ويعتقدون انه بالعقل وحده يمكن للأنسان أن يصل إلى قمة المعرفة ؟ »

أجاب الأستاذ :

— « هذا انتكاس مرضى إلى العقلانية ، عقد الخوف القديمة لدى المفكر والمنطقى ، ان قوة الايمان لا يمكن تفسيرها بما يسمى البحث العلمى ، ولكن يظل الايمان يلعب دورا لا يبارى »

« إن العقلانية غير قادرة على تفسير قوة الايمان ، لأن هذه القوة خارج نطاق المنهج .. الحدس وحده هو الوسيلة الصالحة لمعرفة الحق .

« ان العقل وحده غير قادر على فهم الروح ، اذ كيف يمكن للجزء أن يعرف الكل ؟ »

■ ■ ■

مرت خمس سنوات منذ جاءوا للاقامة فى الكهوف ، وجاء اليوم الذى أعلن فيه ساتياناندا انه قد حان الوقت لرحيله عن الجسد ، فاستدعى حوارييه إلى كهفه وقال لهم :

« العالم فى حاجة ماسة لمعرفة هذه الحقيقة الثابتة ، وهى أن كل فرد مقدس ، ان كل فرد ، بوعى أو بدون وعى ، يبحث عن حرية الروح ، التى

هى كامنة فى الطبيعة ، فاذهبوا واعلنوا هذه الحقيقة دون خوف أو انحياز واكشفوا للأرض روح الهيمالايا »

قال ذلك ثم اضطجع بهدوء على سريره الصخرى ، وشعت هالة مقدسة من كيانه كأنها هالة من النور تكسو بدنه ، وبملامح رزينة وابتسامة مباركة على شفتيه فاضت روحه إلى المجهول ، وملأ وهج غامض جنبات الكهف .

وفى خارج الكهف ، فى السماء الزرقاء ، كانت بجعتان مشعتان تشقان طريقهما باجنحتهما نحو السماء .

الفهــرس

رقم الايداع
١٩٩٠/٥٤٠١ م
I.S.B.N. 977 - 08 - 0029 - 5

١١٢



ادارة الكتب والمكتبات